

لماذا أحبه!!

رؤى بمواقف الحبيب المصطفى



الكتاب: لماذا أحبه !!

المؤلف: عز الدين محمد الدوماني

رقم الإيداع: ٢٣١٤ / ٢٠٢٤

الترقيم الدولي: 3-662-493-977-978

الطبعة: الأولى / ٢٠٢٤

الناشر

شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

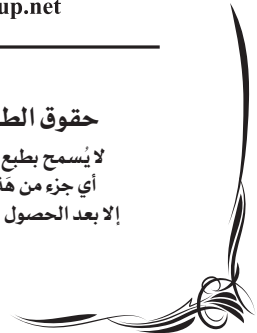
shams@shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يُسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

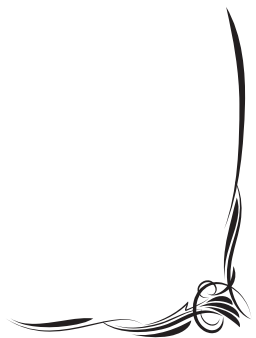


لماذا أحبه!!

رؤى بمواقف الحبيب المصطفى

عز الدين محمد الدوماني





لماذا أحبه!!

بِاسْمِ الَّذِي لِلْأَرْضِ يَمْلِكُ وَالسَّمَاءِ
وَصَلَاةُ رَبِّي وَالسَّلَامُ عَلَى الَّذِي
وَالْخَمْرَ حَرَّمَ وَالنَّطِيجَةَ وَالْدَّمَاءَ
عَاشَ الْحَيَاةَ مُجَاهِدًا وَمُعَلِّمًا

تساؤلٌ صعبٌ حيرني، وقفتُ أمامه مرات، ومرات، بل ترددتُ كثيرًا في الإجابة عنه؛ لعلمي أن الآلاف، بل مئات الآلاف قبلي حاولوا الإجابة، ووقفوا مشدوهين مثلي متسائلين عن سر حبهم لرسول الله ﷺ، الذي تمكّن بدعوة بدأها وحيدًا من تغيير وجه البشرية جمعاء، بعد أن جعل مجموعة قبائل متناحرة متفرقة تائهة تعبد الأصنام - وإذا جاعت أكلت آلهتها - أمة تتصدر الأمم في زمنها، وغدت بشهادة رب العالمين خير أمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. كما سعى بكل ما أوتي من قوة لانتشال البشرية كلها من الضياع وليعيدها إلى الرشاد حتى لا تبقى تائهة بعد أن هداه ربه. فهديه لم يقتصر على قومه من العرب فحسب، بل امتد إلى الأمم الأخرى؛ فقد أمر كل من اعتنق ديانته بأن يبلغ عنه. فعن عبد الله بن عمرو ؓ: أن النبي ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية» (البخاري والترمذي). وفي كل خطبة بالمؤمنين يقول: «لِيُبْلَغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» «فَرُبَّ مَبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ». فقد استهدف

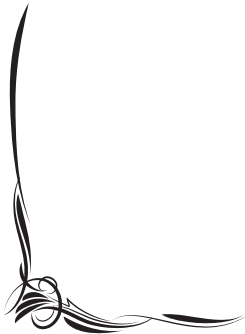
ﷺ وصول دعوته لكل الناس حتى يهتدوا إلى الطريق القويم. فثقة سيدي رسول الله ﷺ التي لا حدود لها بربه، ثم همته العالية، وسعيه الدؤوب إلى إيصال رسالته للناس أجمعين، بل حبه الشديد لنا نحن - البشر - حتم عليّ أن أسترجع ما في جعبتي من حصيلة جمعتها من قراءاتي لسيرته ﷺ في أكثر من مصدر لعلني أجيب عن تساؤلي، فلم أفجح.. حاولت تناسي التساؤل بعدما تعذّرت عليّ الإجابة، لكنه عاودني ملحاً مرات كثيرة. فقلت في نفسي: الأسهل عليّ أن أقدم روحى فداءً لسيدي رسول الله ﷺ من أن أقصّر في إيفاء أي موقف من المواقف التي أحببته من أجلها حقه من التعبير. وما أكثر تلك المواقف! فهديه ﷺ هداًنا وعلمنا وأرشدنا نحن - المسلمين - لم يترك شيئاً في الدنيا والآخرة إلا بصّرنا به. فكان لنا أحنّ من آبائنا وأمهاتنا، بل شمل حنانه غير المسلمين!!

كم مرة سألت نفسي: مَنْ أكون حتى أتصدى للإجابة عن هذا التساؤل الأهم؟! فقلت: لماذا لا أعود إلى قراءة سيرة المصطفى ﷺ ثانية؟ فإن مجرد قراءتها من جديد لشرف عظيم، وعزٌّ لا يرقى إليه عزّ. فعدتُ إلى القراءة، وأملّي بالله أن أسهم ولو بجزء يسير في الإجابة عن التساؤل الأهم تعبيراً عما يكتنزه صدري من حبّ لسيدي رسول الله ﷺ متوكّلاً على الله، بادئاً القراءة، واضعاً نصب عينيّ اختيار بعض المواقف من خلال قراءتي لسيرة المصطفى العطرة ﷺ حتى أبوح بما تركته في نفسي من أثرٍ علّها تسهم ولو بجزء يسير في التعبير عن

سر حبي الكبير للرسول ﷺ لكونه قدوتي، ومثلي الأعلى في حياتي، فكلما قرأت سيرته زاد هذا الحب وملك عليّ جوانحي، مثنياً جهده وتضحيته، وإشاره من أجل إخراجنا نحن - البشر - من الظلمات إلى النور؛ فأيقنت أن قراءة سيرته العطرة مفيدة لما تحتويه من مواقف حياتية شاملة لجوانب الحياة التي جرت مع المعصوم ﷺ تفيد من يقرؤها، بل تبصره بأمور كثيرة يحتاج إليها في حياته.

هذا الجهد أضعه بين يدي القارئ العزيز علّه يقدم شيئاً مفيداً، فإن وُفِّقْتُ فمن ربي، وإن لم أوفق فمن نفسي.. في هذا المقام أتوجه شاكراً لمن أسدى لي نصحاً أو ملحوظة من الذين قرؤوا النص من مشايخ وزملاء، والشكر موصول للزميل الشاعر الذي قرض أبياتاً لبعض الفقرات، راجياً المولى أن يجعل أجر إسهاماتهم في ميزان درجاتهم يوم لا ينفع مال ولا بنون.

العبد الفقير / عز الدين محمد الدوماني



(١)

موقف الرسول ﷺ أمام عمه أبي طالب

جاء وفد قريش إلى أبي طالب، وطلب إليه أن يكفّ ابن أخيه عن دعوته التي تسفه معتقد آبائهم وأجدادهم، حيث ورد في سيرة ابن هشام أن ابن إسحاق قال:

(فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله لم يردوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا عداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون، وحذب على الرسول الكريم عمه أبو طالب، ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهرًا لأمره لا يرده عنه شيء. فلما رأت قريش أن الرسول ﷺ لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم، وعيب آهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه، وقام دونه فلم يُسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب وهم عتبة وشيبة بن عبد شمس، وأبو سفيان بن حرب وغيرهم فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آهتنا، وعاب ديننا، وسفه أعلامنا وضلّل آباءنا، فإما أن تكفّه عنا، وإما أن نُخْلِ بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيك. فقال أبو طالب قولاً رقيقاً، وردّه ردّاً جميلاً.

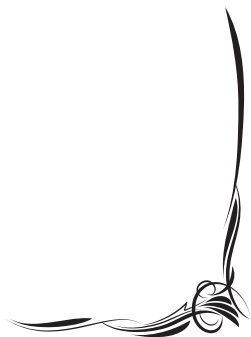
فانصرفوا عنه.. مضى الرسول ﷺ على ما هو عليه يُظهر دين الله، ويدعو إليه، ثم كثر المرئيينه وبينهم حتى تباعد الرجال ونضاغوا، وأكثر قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها فحَصَّ بعضهم بعضًا عليه، ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب ثانية. فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًا وشرًا ومنزلة فينا، وإننا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آهتنا حتى تكفَّه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا. ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسًا بإسلام ابن أخيه لهم ولا خذلانه).

ويتابع ابن إسحاق فيقول:

(وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حدث:
أن قريشًا حيث قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. قال: فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه بداء أنه خاذلٌ ومسلمه، وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه. قال: فقال رسول الله ﷺ: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك فيه». ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولَّى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال أبو طالب: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت؛ فوالله لا أسلمك لشيء أبداً).

قال ابن إسحاق: (ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له فيما بلغني: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أشد وأقوى وأجمل فتى في قريش، فخذ به فلك عقله ونصره واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفّه أعلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل. فقال: والله لبئس ما تسوموني! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدًا. قال: فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً! فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك، أو كما قال. فزاد واشتد الأمر، وحميت الحرب، وتنابد القوم، وبادى بعضهم بعضاً).

* مختصر السيرة النبوية لابن هشام ٤٨ - ٥١



ما رأييت!!

- أن أبا طالب عم الرسول الكريم لم يكن في حسابانه أبداً أن تصل وقاحة قومه إلى طلب تسليمهم ابن أخيه ليقتلوه، مقابل فتى يأخذه منهم ليربيه لهم.

- إن كنت على الحق اليقين البين جهاراً نهاراً فتمسك به، ولا تفرط بأي جزء منه، ولا تنخدع بالمغريات مهما بلغت كثرتها، ومكانتها؛ لأنها لا تساوي شيئاً أمام حقك. والدليل أن من يساومك بها لو كانت بقيمة حقك لما بذلها، وفرط بها.

- في لحظات تجد أقرب الناس إليك، وأكثرهم قرباً منك، ومودة إليك، وحرصاً عليك، وعلى مصالحك يضعف فيرضى المساومة عليك، لكن ثباتك على حقك يعيده إلى عهده الأول بالدفاع عنك مهما حملته ذلك من تبعات ومخاطر ومهالك.

- ستلاقي كثيراً ممن ظننتهم صادقين محبين يحمّلون لك غير ما تؤمن به مجاملة للآخرين، ورغبة في انتعاش مصالحهم من دون تقدير صحيح لمبادئك، فاعذرهم.

- لكل جواد كبوة، فأبو طالب تراجع عن موقفه تجاه سيد

المرسلين فور اكتشافه ثباته على مبدئه، بل غدا مسانداً له أكثر من ذي قبل، ورضي التضحية بأعلى ما يملك من أجله، حيث بذل كل غالٍ ونفيس في سبيل استمراره بدعوته..

- يزرع الله تعالى في قلب المؤمن قوة وثباتاً يفوقان إمكاناته التي ألفها من قبل بين جنبيه.

- الإصرار على إظهار الحق، وكشف الباطل يأتي بنتائج إيجابية مهما تعاضد أعداء الحق وسعوا إلى طمسه، وإن بعدت الشقة، وطال الزمن.

- قد يأتيك الأذى من أقرب الناس، ممن تظنهم محبين ناصحين كما حصل لأبي طالب من صديقه المقرب المطعم بن عديّ الذي حاول إقناعه التخلي عن ابن أخيه وتسليمه لأعدائه.

- مهما أظهر عتاة الباطل تماسكاً وتعاوناً ليشعروك بانعدام الفرص أمامك، فلا تيأس من الفرج القريب، فهم على باطل وبهتان وستلمح في نهاية النفق لحظة بدء انفكاك توافقهم.. فاستغلها ولا تضيعها.

- الدم الجاري في العروق عزيز، فمهما تعاظمت المخاطر، واقتربت المهالك منك، وأيقنت أن أقرباءك تخلّوا عنك، وكدت تهزم، تأكّد أن دماءهم لن تبقى باردة في عروقهم بل ستغلي، وتحرك

همهم وسيهبّون إلى جانبك ليدفعوا الضيم عنك؛ لذلك قالوا في الأمثال: الدم لا يصير ماء!!

- إياك ثم إياك أن تفقد الأمل، فكل حياتنا قائمة على الأمل، فلولاها لأصابتنا الكآبة والانزمام، ولتعطلت جوانب الحياة، ففي أمر اللحظات، وأكثرها صعوبة، وأشدّها ظلامًا تمسك بالأمل ولن يخذلك الله، فالنبي ﷺ لم يفقد الأمل بعمه، وبمجرد أن ناداه لبيّ دعوته، وتصرف كأنه لم يسمع كلامًا من قبل يثبط الهمم، بل أثر أن يسمع كلام عمه إلى آخره، فجاءه الفرج من الله أن غير عزم عمه ليستمر واقفًا إلى جانب دعوته.

- رسول الله ﷺ لم يكن بدعًا من الرسل فمعظمهم عذب، وطُرد وعُودي، وهناك من قتل، فهذا العداء من قريش بالنسبة له طبيعي فقد هبّا نفسه لقبول ذلك.

- لا تنخدع بالظاهر فربما لم يخطر لحظة في نفس الرسول الكريم أن عمه ذا المكانة في قومه، وذا المنزلة الرفيعة كابرًا عن كابر ستعاديته قريش وهو ابن سيدها، لكن الواقع غير ذلك، فبعد أن أيقنت قريش أن دعوة الرسول الكريم ستحطم آمالها، وتطلعاتها في بقائها زعيمة للعرب في جزيرتهم قررت التضحية بزعيمها؛ قيل: عليّ وعلى أعدائي، فحزمت أمرها وارتأت معاداة أبي طالب؛ ففي نظرها أخف الضررين، لكن عناية الله غرست في جنان أبي طالب قوة تخور أمامها الجبال الراسيات.

- في مثل هذه المواقف المصيرية لا مكان للتردد حتى لا تفوت الفرصة، فكل ثانية من الزمن تمر لها ما بعدها. فلم يكن لدى الرسول الكريم وقت للمناورة؛ لذلك كان قراره حاسماً غير قابل للمساومة أو التأويل، ما جعل عمه يتابع نصرته.

- الحكم الذي يُتخذ بسرعة قد يتراجع عنه متخذه إن أعطى عقله فرصة للتفكير؛ لأن في إنفاذه مجلبة للندم والحسرات وربما الويلات، فقد يحمل صاحبه تبعات كثيرة تفقده مكاسبه التي حصلها من قبل. فأبو طالب كاد يستجيب لطلب قريش لما شعر أن لا طاقة له بها، وكأنه يقول لابن أخيه: ارحمني يا ابن لأخي، لم يعد باليد حيلة، لكنه استدرك، وحكّم عقله فقرر رمي حكمه المتسرع جانباً، وتابع مساره في نصرته ابن أخيه، والذي ثبت نجاحه بفضل الله، حيث دخل الناس في دين الله أفواجا، وغار بذلك كفر قريش، وظفرت الدعوة الإسلامية وجاءت بعزّ فاق كل تصور. فعتاة قريش كانوا حريصين على آلهتهم وسمعة آبائهم، فلو نجحت دعوتهم - افتراضاً - وأبعدوا الرسول ﷺ عن الساحة ل بقي عزهم الذي يدّعون محصوراً بين جبال مكة، فمهما ابتعد فلن يتخطى الجزيرة العربية، ولزمن محدود جداً بينما دعوة محمد ﷺ شملت العالم كله، فأين الثرى من الثرى؟

(٢)

موقف الرسول ﷺ لدى إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وَحَرَجْتَ بِالسَّيْفِ الْمُهَنْدِ تَبْتَغِي قَتَلَ الَّذِي أَصْنَانُكُمْ لَا يَعْبُدُ
لَكِنَّ مَنْ خَلَقَ الرِّيَّةَ مِنْ نَرَى قَدْ شَاءَ أَمْرًا كَانَ أَحْمَدُ يَنْشُدُ
فَلِذَا أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِنَقُولَ يَا خَيْرَ الْوَرَى لَكَ بِالرَّسَالَةِ أَشْهَدُ
وَلَأَنْتَ حَبِّي وَالْحَبِيبُ وَمُهَجَّتِي وَلَغَيْرِ رَبِّكَ فِي الدُّنَى لَا أَسْجُدُ

قال ابن إسحاق: (وكان إسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب قد أسلمت، وأسلم بعلها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان خباب ابن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكر له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين نساء ورجال.. كان مع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قحافة «الصدِّيق» وعلي بن أبي طالب، في رجال من المسلمين - رضي الله عنهم أجمعين - ممن كان أقام مع الرسول ﷺ بمكة ولم يخرج إلى أرض الحبشة. فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها

وعاب دينها، وسب آلهتها فأقتله. فقال نُعيم: والله لقد عرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال عمر: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلمنا، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما. قال: فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعندهما خباب ابن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئها إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيب خباب في مخدع لهما، أو في بعض البيت. وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينة التي سمعت؟ قال له: ما سمعت شيئاً. قال: بلى، والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضر بها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون أنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد؟ وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها. قال: لا تخافي، وحلف لها بآلته ليردنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك: طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسه إلا

الظاهر. فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها (طه) فقرأها، فلما قرأ منها صدرًا، قال: ما أحسن هذا الكلام، وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه. فقال له: يا عمر والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس يقول: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو عمر بن الخطاب». وقال الراوي عبدالله بن عمر رضي الله عنه: وكان أحبهما إليه عمر. أخرجه الترمذي (٣٦٨١) «الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب»، فالله الله يا عمر، فقال له عند ذلك عمر: فدلي يا خباب على محمد حتى آتبه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه فأخذ عمر سيفه، وتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحًا بالسيف، فرجع إلى الرسول ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحًا بالسيف، قال حمزة بن عبد المطلب: فائذن له، فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه. فقال رسول الله ﷺ: «ائذن له». فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فأخذ حجزته أو بمجمع رداءه، ثم جبذه به جبذة شديدة، وقال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة»، فقال عمر: يا رسول الله، جئت لك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله. قال: فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة

عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم. فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم، وقد عزّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنها سيمنعان رسول الله ﷺ ويتصفون بهما من عدوهم).

* مختصر السيرة النبوية ٦٤ - ٦٧



ما رأيتم!!

موقف الرسول ﷺ فريداً من نوعه لعدة أسباب:

١ - الدلالة القاطعة التي لا لبس فيها أن رسول الله ﷺ شجاع شجاعة يصعب تصورها، ويندر أن تحصل من قائد بشري مهما علا كعبه، لا خوف موت إن لحق به، وإنما الخوف مما سيحصل للجيش إن حصل له مكروه - لا قدر الله - من مخاطر جسيمة أقلها انهيار معنويات الجيش، وصعوبة مواجهته عدوه لكن الرسول الكريم ﷺ قائد مختلف عن كل القادة، ولا سبيل للمقارنة فيقينه بنصر ربه له مؤكداً فاتخذ موقفاً باغت به القارع وأصحابه أيضاً، فجاء مجلجلاً يليق برسول الله ﷺ حيث توجه إلى الباب ليواجه عمر بكل ثبات واطمئنان. يمسك به، ويجذبه بقوة جعلت هذا الفارس المهيّب يرد بعظمة لسانه وهو منكسر مستسلم: «جئتك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله»، وهو المعروف بالقوة والجبروت في كل المواقف. فأقل ما يتوقعه المرء من فعل عمر في هذا الموقف أن تأخذه العزة بالإثم فيلاقي الرسول الكريم بالسيف دفعا للإهانة والإذلال خاصة أمام أناس يهابون شجاعته.

٢ - إيمان الرسول ﷺ الراسخ بأن الله - سبحانه وتعالى - سيثب الرعب في قلب عمر الفارس المعروف في قريش بشدة البأس

والشجاعة والبطش فأقوى فرسان قريش يتحاشون منازلته في المقابل سيغرس الله في قلبه شجاعة تفوق شجاعة خصمه، ورباطة بأس لا نظير لها، وإقداماً جريئاً انتصاراً لله ودينه، يغير كل ما عرف عنه من هدوء وكره للعنف، وحب للأناة والحكمة والصبر وتسخير للكلمة لتبريد مواقف كهذه..

٣ - الإيثار الذي تمتع به رسول الله ﷺ فاق تصوّر البشر، وهو المحاط بأناس محبين له حباً لا حدود له. فلو طلب منهم أرواحهم لبذلوها في سبيل الله، ومع ذلك كان السباق إلى مواجهة الخطر، ودفعه عن أصحابه المحبين له، هذه الميزة يندر أن يتحلى بها حتى القادة المتميزون.

٤ - دليل شجاعة الرسول ﷺ يتضح في أبهى صورته، بمواجهته للفارس الضرغام ابن الخطاب متوشحاً بالسيف، وهو أعزل، وذهنه منذ ثوانٍ يخلو من مثل هذه المواجهة المفاجئة، فوجد نفسه أمام رجل أعد عدته، وحمل سيفه، وبيّت النية على القتل، إذاً هو مهياً نفسياً، ومعروف في المواجهات بشكل عام مقدار تأثير العامل النفسي في حسم النتائج! بينما رسول الله ﷺ خالي الذهن من الحدث الذي كان مفاجئاً للجميع..

٥ - ذهول غريب يكتنف أصحاب النبي، وهم يرون رسولهم ﷺ ينطلق إلى الباب كالسهم واقفاً أمام عمر وجهاً لوجه من دون أن

يترك لهم أدنى مجال للتفكير في دفع الخطر.

٦ - تبدل المشاعر كلياً «مئة بالمئة» من خوف وهلع، وتوقع صخب، وبطش، وسفك دم إلى فرح وسرور عندما فاجأهم عمر بإسلامه غير المتوقع، حيث انعكس ذلك على بيضة الإسلام، فغدا من أشد المدافعين عنه عكس ماضيه كلبية.

٧ - أمر الله نافذ لا محالة، فعمر التقى نعيم بن عبد الله الذي أخبره بإسلام أخته وزوجها فقفل إلى بيتها، ثم تغيرت مشاعره من راغب عن الإسلام إلى راغب فيه:

دَعِ الْمَقَادِيرَ تَجْرِي فِي أَعْيُنِهَا وَلَا تَبْتَئَنَّ إِلَّا خَالِي الْبَالِ
مَا بَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا يُغَيِّرُ اللَّهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ

هذا ما حصل مع عمر الفارس المغوار الذي تغير مع إسلامه الكثير على مستوى صحابة الرسول الكريم، حيث ارتفعت معنوياتهم وقويت شوكتهم، واتسع الأفق أمامهم بأن دينهم أُعِزَّ بأحد العمرين، أما على مستوى أعداء الإسلام فقد أصابهم إسلام عمر بمقتل، وخيبة كبيرة. فسبحان من يُجري المقادير.

٨ - لا يعلم الغيب إلا الله، فالظاهر من الحدث في البداية أنه شر على المسلمين، لكنه انعكس خيراً وسعادة بفضل الله الذي يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ

لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].



(٣)

موقف الرسول ﷺ من رفض ثقيف نصرته

يَلِجُ الْجِنَانُ بَشْرَعَنَا ذَاكَ الَّذِي هُوَ مُؤْمِنٌ وَلِصَالِحَاتٍ يَعْمَلُ
شَرْطَانِ فِي سَفَرِ الْجَلِيلِ وَمَنْ تَلَا آيَاتِهِ فَكَلِمَتُهُمَا لَا يَجْهَلُ

قال ابن إسحاق: ولما مات أبو طالب نالت قريش من الرسول ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج ﷺ إلى الطائف وحده يلتمسُ النصرَةَ من ثقيفٍ والمنعةَ بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تعالى.

ويتابع ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال: لما انتهى رسولُ الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفرٍ من ثقيف، هم يومئذٍ سادةٌ ثقيفٍ وأشرافهم، وهم إخوةٌ ثلاثةٌ: عبدُ ياليل بن عمرو، ومسعود، وحييب، وعند أحدهم امرأةٌ من قريشٍ من بني جمح فجلس إليهم الرسول ﷺ فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه. فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال الآخر: أما وجدَ الله أحداً فيرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لأن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظمُ خطراً من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذبُ على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم فيما ذكر: «إذا فعلتم ما فعلتم فاكموا عني» وكره ﷺ أن يبلغ قومه عنه، فيذئروهم ذلك عليه فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم، وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وأجروه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبل من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، وقد لقي ﷺ فيما ذكر لي - المرأة التي من بني جح ف قال لها: «ماذا لقينا من أمثالك»؟

فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال فيما ذكر لي: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

قال: فلما رآه ابنا ربيعة: عتبة وشيبة وما لقي؛ تحركت له رحمها، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً، يقال له: عداس، فقالا له: خذ قطعاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل،

فَقُلْ لَهُ يَأْكُلْ مِنْهُ. ففعل عدَّاسٌ، ثم أقبلَ به حتى وضعَه بين يدي رسولِ الله ﷺ، ثم قال له: كُلْ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: «باسمِ الله» ثم أكل. فنظر عدَّاسٌ في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلامَ ما يقوله أهلُ هذه البلاد، فقال له الرسول ﷺ: «ومن أهلِ أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟» قال: نصراني، وأنا رجل من أهلِ نينوى. فقال رسول الله ﷺ: «من قريةِ الرَّجُلِ الصالحِ يونسَ ابنِ مَتَّى».

فقال له عدَّاسٌ: وما يُدريك ما يونس بن مَتَّى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبيٌّ» فأكبَّ عدَّاسٌ على رسول الله ﷺ يقبِّلُ رأسَه ويديه وقدميه. قال: يقول ابنا ربيعةَ أحدهما لصاحبه: أَمَّا غلامُكَ فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عدَّاسٌ قالَا له: ويلك يا عدَّاسُ! ما لك تُقبِّلُ رأسَ هذا الرجلِ ويديه وقدميه؟

قال: يا سيِّدي، ما في الأرضِ شيءٌ خَيْرٌ من هذا، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمُه إلا نبيٌّ، قالَا له: ويحك يا عدَّاسُ، لا يصرفنَّكَ عن دينك، فإن دينك خيرٌ من دينه.

أمرُ الجنِّ الذين استمعوا له وآمنوا به..

قال: ثم إن الرسول ﷺ انصرفَ من الطَّائِفِ راجِعاً إلى مكة حين يئسَ من خيرِ ثقيف، حتى إذا كان بنخلةٍ قام من جوفِ الليلِ

يُصَلِّي فمر به النفر من الجن الذين ذكّرهم الله تبارك وتعالى، وهم -
 فيما ذكر لي سبعة نفر - من جن أهل نصيبين فاستمعوا له؛ فلما فرغ
 من صلاته ولّوا إلى قومهم مُنذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا.
 فَقَصَّ اللَّهُ خَبْرَهُمْ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ
 نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَجْرُكُم مِّنْ عَذَابٍ
 أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ١]
 إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة.

* مختصر السيرة النبوية ٨٥ - ٨٧ *



ما رأييت!!

ردة فعل هؤلاء الإخوة - أشرف ثقيف - عندما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام تدمي القلب؛ لأنها تخطت كل لباقة وعُرف. هل من شيم العربي أن يتصرف مع ضيفه بمثل هذا المسلك المشين؟ ألم يسمع هؤلاء الإخوة بما يفعله العربي الذي يعيش في الصحراء؟ أليس منهم رجل رشيد؟ فسرعان من نزل بساحة تفكيري ما ذكر عن كرم حاتم الطائي، وأمثاله من رجالات العرب الذين يتبارون في إكرام ضيوفهم، واسترجعت الأمثال التي يرددها بعض العامة في مثل هذا المقامات: (لقيني ولا طعميني) (يكفيني استقبالك).. فالعربي ساكن الصحراء يوقد النيران أمام خيمته ليلاً ليهتدي إليها السائرون بالصحراء في حلقة الدجى لعلمه كم تترك رؤيتها من أثر نفسي في سالكي الصحراء مهما كانت بعيدة عن رائتها؛ لأنه بمجرد أن يلمحها يتنفس الصعداء، فينبعث في نفسه تفاؤل ونشاط لم يكونا من قبل؛ فيهمُّ مستهدفًا الوصول إليها، وما أن يصلها يستقبله راعيها مُرحَّبًا وحامدًا لله سلامته، ثم يسعى إلى تبديد متاعبه بكلامه الجميل، ويقدم له القرى مهما كان متواضعًا. فإن كان المضيف ميسور الحال نحر لضيفه إكرامًا. ففي عرف سكان الصحراء أن

سالكها شعراء سينقلون أفعالهم للآخرين فيخشون أن يلاموا إن قصّروا.. ومنه من يحسب حساب المستقبل إن ضرب هو نفسه ذات ليلة في الصحراء. فكم ستكون فرحته عظيمة إن لمح ناراً من بعيد؛ لأن فيها أمل نجاته من مفاجآت الليل المهلكة؛ لذلك قيل: «الجزء من جنس العمل».. إن الذين قصدهم رسول الله ﷺ قاطعاً إليهم عشرات الأميال سيراً على الأقدام، مؤملاً نصرته في دعوته استقبلوه استقبالاً باهتاً ساخراً، وبجفاء وغلظة وخسة لا يليق بأي إنسان، ولا يتوافق مع العرف والتقاليد، حيث مثل أعتى أشكال السفاهة والغرور والصلف والغرور. فبمجرد أن طلب منهم رسول الله ﷺ أن يكتموا خبره عن قريش أظهروا حماقة وسفاهة ولؤماً، إذ طردوه، بل سلّطوا عليه صبيانهم وعبيدهم وسفهاءهم ليلحقوا به ويرموه بالحجارة حتى أدموه.. أهكذا يعامل المُضيفُ ضيفه؟!...

- لقد فقد هؤلاء برفضهم نصره الرسول الكريم في دعوته شرفاً لا بعده ولا قبله.. شرفاً قد يُكسبهم رضا الله، ثم المسلمين، وكل من يجب إكرام الضيف..

- أليس مستغرباً أن يصدر هذا التصرف عن أناس من أشراف ثقيف يعيشون في الحاضرة التي يتردد إليها يومياً عشرات الغرباء من الأرياف للتجارة والتسوق، حيث يترتب عليهم أن يعاملوا زوارهم بكياسة وحسن خلق؟!!

- صدور هذا التصرف عن غير شرفاء ثقيف ربما يكون وقعه
أخف على سيدي رسول الله ﷺ بحجة عدم معرفتهم مكانته في
قومه، لكن صدوره من أناس عرفوه ولّد في نفسه مرارة وحرّة لا
طاقة لبشر بهما:

- ألم يفكر هؤلاء -ولو للحظة- بكمّ الأسى الذي ألحقه ردهم
بمشاعر الرسول الكريم المعروف للقاصي والداني بأخلاقه الحميدة،
فأعداء دعوته من قريش بمكة ينادونه بالأمين حتى إنهم على الرغم
من ذلك استمروا بوضع الأمانات لديه؟

- ألم يتخيّلوا الألم الذي كابده وهو يتذوق مرارة خذلانهم،
وسوء ردهم، بل - زادوا الطينة بلة - كما يقال عندما طلبوا من
غلمانهم وعبيدهم اللحاق به ورميه بالحجارة؟

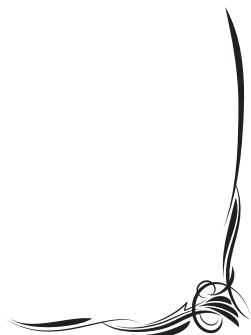
- ألم يرجع أحدهم إلى نفسه، ويسألها لو حصل من مضيفيه
كهذا، ما شعوره تجاه هؤلاء، وما ردة فعله وقتئذ؟ أيقف صامتاً
متجاهلاً أم..؟

-وقفتُ مذهولاً أمام تصرفهم الذي قوبل من رسول الله
ﷺ بإحسان لا حدود له، فلما رجعت إلى نفسي قلت: إن أخلاق
رسول الله ﷺ وسماحته ورحمته وحبّه للناس امتص كل غضبٍ آتٍ
ولّده تصرفهم الشنيع، فلديه ﷺ أمانة من رب المشارق والمغارب
ينبغي إيصالها. فمن سبقه من الرسل ﷺ حصل لهم أشدّ فصبروا

واحتسبوا وانتصروا في نهاية الأمر. فالأمور بخواتيمها؛ لذلك قابل الرسول الكريم ﷺ إساءتهم وجحودهم واعتداءهم بالتضرع أن يشرح الله صدورهم للإيمان.

- ما أعطفك، وأعظمك، وأرحمك يا سيدي يا رسول الله! تتحمل الأذى، وتتجرع الألم، والمرارة والحسرات غير المسبوقة من أجل الآخرين فتصفح وتسامح. فلو أن شخصاً آخر في مقامك، وأتيحت له فرصة الانتقام الناجز من هؤلاء، هل يتأخر ثانية واحدة لا أظن، بل يسعى إلى استئصال شأفتهم ليكون ذلك رادعاً لكل من تسول له نفسه أن يجرح مشاعر الآخرين ولا سيما ضيوفه.

- إن الرحمة التي عمرت قلب رسولنا الكريم فاقت التصور ناهيك عن البصيرة الثاقبة وبعْد النظر بأن سيكون من بينهم من يعبد الله. ففي تصرفه يرسم الرد لمن امتهنت مشاعره بلا سبب، فالرسول الكريم يرشدنا بالألا نتخذ قراراً يماشي مشاعرنا المجروحة وعواطفنا التي تغلب الانتقام، بل علينا التجلّد، ولنلجم مرّجل غضبنا الذي قد يسوقنا إلى ما لا نُحمد عقباه..



(٤)

موقف الرسول الكريم من استشارة أصحابه في

أمور الحياة

(١)

المستشارة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها: منذ الإرهاصات الأولى لدعوة الرسول ﷺ كان يقصّ على زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ما كان من أمر جبريل عليه السلام فينقل ابن إسحاق عن الرسول الكريم ﷺ قوله: «وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها ملتصقاً إليها». فقالت: يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لي، ثم حدثتها بالذي رأيته. فقالت: أبشر يا بن عم، واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، وانطلقت إلى ورقة بن نوفل - وهو ابن عمها - وكان ورقة قد تنصّر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها رسول الله ﷺ فقال ورقة بن نوفل: قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له: فليثبت، رجعت خديجة إلى الرسول ﷺ فأخبرته بقول ورقة بن نوفل، فلما قضى الرسول ﷺ جواره وانصرف، صنع كما كان يصنع: بدأ بالكعبة

فطاف بها، فلقى ورقه بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال: «يا ابن أخي، أخبرني بما رأيت وسمعت» فأخبره رسول الله ﷺ فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكدّبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه، فقبّل يافوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: (ثم تتابع الوحي إلى الرسول ﷺ وهو مؤمن بالله مصدق بما جاءه منه قد قبله بقبوله، وتحمل منه ما حمّله على رضا العباد وسخطهم، والنبوة أثقال، ومؤنة لا يحملها ولا يستطيع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله تعالى وتوفيقه، لما يلقون من الناس وما يرد عليهم مما جاؤوا به عن الله سبحانه وتعالى. مضى الرسول ﷺ على أمر الله، على ما يلقي من قومه من الخلاف والأذى. فآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، وأزرتة على أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله، وصدّقت بما جاءه منه، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ لا يسمع شيئًا مما يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه، وتصدقه، وتهوّن عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى).

* مختصر السيرة النبوية ٤٢ - ٤٣

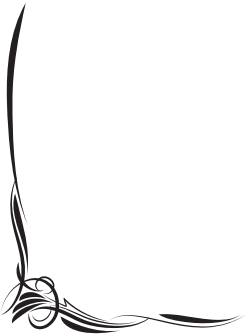
ما رأيته

السيدة خديجة عليها السلام لم تكن للرسول ﷺ مجرد سكن، بل كانت هي المعين والمستشار تخفف معاناته وتكذيب الناس له، وتصبّره على الثبات على دعوة الحق؛ لأنها عرفتة مستقيماً، محباً للناس، باراً بذوي رحم، صادقاً، أميناً. وفي المقابل كان رسول الله ﷺ يكتنز لها حباً جمّاً يصعب وصفه؛ فهو يستشيرها في جل أموره لما تتمتع به من عقل راجح، وبصيرة ثاقبة، وحب للخير، وصدق وإخلاص وتفانٍ من أجل دينها ثم زوجها، واستعداد تام للتضحية في سبيل الله، ونصرة زوجها في مهمته حتى ينشر دعوة الله، التي تنوء عن حملها الجبال الراسيات الشامخات. فأُمنّا خديجة عليها السلام أثبتت في سنوات الدعوة الأولى كفاءتها كمستشارة ناجحة يأخذ سيد الخلق ﷺ برأيها، بل يعمل به. فهي أول من آمن بدعوته من البشر ما جعلها تحظى بمكانة رفيعة لم يصلها أحد. فلما توفيت عليها السلام حزن عليها حزناً شديداً على الرغم من إيمانه بقضاء الله وقدره. فجاءت وفاتها في العام نفسه الذي توفي فيه عمه أبو طالب. فكلاهما ساندته في دعوته بل مثلاً جناحي انطلاق دعوته، عمّه يذب عنه بلسانه، ويحميه من بطش قريش، وأُمنّا خديجة تصبّره، وتشدُّ من عضده، وتقوي من عزمه، وتبعث

فيه التفاؤل والأمل بأن الله لن يخذله. فهي القائلة عندما أخبرها بخبر الساء، قالت ﷺ: «كلا والله، لن يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر». كلمات تقولها أمنا ﷺ لا أجمل منها ولا أحلى في الأيام العادية! فكيف سيكون وقعها على سامعها إن كان في ظروف صعبة معقدة؟ حقاً ستعيد إلى نفسه الطمأنينة والتفاؤل. فكيف إن جاءت من شريكة الحياة التي تعلم عين اليقين أن دعوة الرسول ﷺ ستأخذه منها؟ أي زوجة أنت يا أمنا خديجة - رضي الله عنك - ! لقد اخترت الطريق الصعب المر الطويل المفروش بالأشواك بل بالمخاطر كما يبدو من منظور البشر، ففيه الكثير من العداوات والمكر وغيرهما، فأعداء زوجك ﷺ كثر يتربصون به الدوائر، ولم يتركوا وسيلة وصلتها أيديهم إلا فعلوها ليبعدوه عن دينه، لكنه بفضل الله ثم وقوفك إلى جانبه قاومهم وانتصر عليهم في نهاية الأمر. عانيت مع النبي ﷺ فقراً مدقعاً وجوعاً وحصاراً، وأنت ممن كان يملك الثروة الطائلة في مكة من قبل، ما ذلك إلا لأنك من أولياء الله وصفوته. أما الحياة الدنيا بنظرك فهي فترة محدودة ستنتهي. ما أشبهها باستراحة مسافر استظل بشجرة! مهما مكث فسيغادرها ليتابع رحلته..

هكذا كانت الدنيا بنظرك - رحمك الله - كما تعلمنا منك الصبر والوفاء والإخلاص، قد ملكت القلوب والأفئدة كما ملكها سيدي

رسول الله الكريم. فَدَتَّه رُوحِي وَكُلَّ مَا أَمْلِكُ. حَقًّا كُنْتُ يَا أُمَّ
المُؤْمِنِينَ نَعَمْ الْمُسْتِشَارَةُ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ.



(ب)

بعض الصحابة رضي الله عنهم كانوا مستشارين للرسول الكريم: اخترت غير موقف في هذا المقام من استشارات الرسول الكريم لأبدي ما تركته في نفسي من أثر، ففي غزوة بدر استشار عليه السلام أصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - فلنسمع ما نقله ابن إسحاق: (وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ سبعين بعيراً فاعتقلوها وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بالخير. ثم قال: «أشيروا علي أيها الناس»، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا من دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال سعد

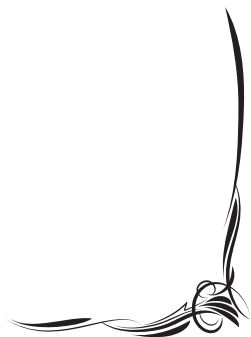
ابن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل» قال سعد: «فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة؛ فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك؛ فسر بنا على بركة الله». سر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا، وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

ويتابع ابن إسحاق فيقول: ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي والقلب ببدر في العدوة الدنيا، وبعث الله السماء وكان الوادي دهساً فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم عن السير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدرُوا على أن يتحلوا معه. فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى إذا جاء أدنى ماء بدر نزل به، لكن الحباب بن المنذر قال: يا رسول الله، أرايت هذا المنزل أمزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل

القوم، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي « فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبنى حوضاً على القلب الذي عليه فملىء ماء، ثم قذفوا فيه الآنية.

وأضاف ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث أن سعد بن معاذ قال: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببناه، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوامٌ يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تحلفوا عنك، يمنعك الله بهم، ينصحونك، ويجاهدون معك. أثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير.

※ مختصر السيرة النبوية ١٢٣ - ١٢٨



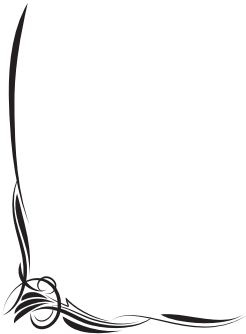
ما رأيتم!!

هذه المواقف مبهرة، حيث بعثت في نفسي مزيداً من كنوز محبة سيدي رسول الله ﷺ لأنها:

- دلت دلالة قاطعة لا لبس فيها على كمّ التواضع الذي تحلى به رسول الله ﷺ وهو المختار من رب العزة ليكون خاتم الأنبياء، ورسولاً للبشر كافة على الرغم من هذه المكانة الفريدة يستشير أصحابه، ويجاورهم، ويسمع باهتمام آراءهم، بل يتراجع عن قرار اتخذه، ويعتمد آراءهم علانية وعلى مسمع أصحابه. فلو حاولنا اليوم استعراض مواقف المسؤولين سواء أعلت مناصبهم أم دنت إن صدر أحدهم قراراً أو أمراً، فحاول أحد موظفيه مناقشته في القرار وإن كان قبل صدوره للعلن لا متعص منه ووضع في رأسه، منتظراً فرصة مناسبة ليقصص منه لجأته عليه، معتبراً ذلك النصيح تسفيهاً، وتقليلاً من شأنه، لكن الرسول الكريم خير من مشى على الأرض وجدته من سيرته العطرة يتعامل بكبكية البشر مع علمه اليقين وثقته التي لا تتزعزع أنه مؤيد ومنصور من رب العالمين. فلنسمع للصحابي الجليل سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحدثنا عما جرى بينه وبين سيد

البرية ﷺ فيقول: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال الرسول ﷺ: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟». يا الله كم هي ثقتك بالله يا سيدي يا رسول الله، فقد علمت أن من اعتصم بالله كفاه. فالله نعم الناصر والمعين، أنت يا سيدي إمام المتوكلين على الله الواثقين بنصره، ومع ذلك تتعامل مع الأحداث بحس الإنسان العادي المتوقع الفوز والإخفاق تناقش وتحاور وتستشير وتأخذ بآراء أصحابك بكل شفافية وطيب خاطر، وتعدّ العدة، وتأخذ بالأسباب كلها مع يقينك بربك.. إن موقفك من الأنصار قبل بدء معركة بدر كفيل لكل ذي بصيرة وعقل أن يصدق دعوتك، فأنت تعلم علم اليقين أن الأنصار لن يتركوك والمهاجرين في ساحة المعركة مهما حصل، مع ذلك أحببت أن تسمع من زعيمهم رأيهم بوضوح وبلا مواربة حتى لا يكون الحياء سبب بقائهم إلى جوارك. حيث قال زعيمهم بالفم الملآن وعلى رؤوس الأشهاد: نحن معك بكل ما أوتينا من قوة في المدينة وفق العهد وخارج المدينة. أردت بموقفك هذا أن ترسم لنا خريطة التعامل الشفاف بين الأصدقاء، وألا تترك مدخلًا للشيطان بين الصفوف المرصوفة كالبنيان يشد بعضها بعضًا ليوسس في النفوس، ويزرع الشك والريبة إن وقع المحذور - لا قدر الله - وكثر التأويل؛ فانقلبت الجماعة الواحدة لتغدو جماعات، وتفرقت كلمتها، وسهل على العدو

الولوج بين الصفوف المتضععة أصلاً فأخذ منها إلى جانبه ضعاف الإيمان ليضرب بهم حتى يتمكن من هزيمتها، ثم تفريقها شراذم متناحرة كيلا يكون لهم شأن مستقبلاً..



(٥)

موقف الرسول الكريم لدى تمكنه من شخصين

حرصا على قتله

للهِ دَرَكٌ كَيْفَ تُطْلَقُ جُجْرًا وَعَنِ الَّذِي مَن رَامَ قَتَلَكَ تَصَفَحُ
إِنِّي لَأُقْسِمُ بِالَّذِي فَلَقَ النَّوَى مَا فِي الرِّيَّةِ مَنْ لَوْضَفَكَ يُفْلَحُ

(١)

حصل المشهد الأول من قبل الصحابي ثمانية بن أثال حيث ورد:
(في السنة السادسة من الهجرة بعد صلح الحديبية مع قريش أرسل النبي ﷺ إلى بعض ملوك الأرض كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام، وكان من جملة من كتبهم ثمانية بن أثال الحنفي من سادة بني حنيفة، ويقال بأنه ملك من ملوكها، عرف بين العرب بتجارته بالحنطة، فلما وصله كتاب رسول الله ﷺ أخذته العزة بالإثم، وتلقاه بالإعراض ثم ركب الشيطان حتى أغراه بالتخطيط لقتل رسول الله ﷺ ومن يلقى من صحابته. كان ذلك بتوجيه من مسيلمة الكذاب. ووصل به الحد أن عزم على الذهاب إلى المدينة ليقتل الرسول الكريم لولا أن عمومته منعه.. ذات يوم التقى ثمانية بن أثال ببضعة رجال من صحابة الرسول ﷺ مع فرسانه، فقاتلهم حتى قضى عليهم، ولما وصل الخبر

للنبي ﷺ حزنٌ شديداً على صحابته، فأهدر دم ثمامة بن أثال جزاء فعله. فغدا الصحابي من صحابة رسول الله ﷺ يتمنى أن يلقي ثمامة ليقتله تنفيذاً لأمر رسول الله ﷺ، خرج ثمامة بن أثال يوماً من اليمامة، قاصداً مكة لأداء العمرة فأخذته إحدى سرايا النبي ﷺ أسيراً وكانت تجوس خلال الديار خوفاً من أن يطرق المدينة طارق يريد لها بشر، وهي لا تعرفه، فأتت به إلى المدينة وشدته إلى سارية من سواري المسجد - هي سارية التوبة - ينتظرون خروج النبي ﷺ ليوقف عليه بنفسه، وليأمر بأمره. فلما خرج الرسول الكريم، ورآه قال لأصحابه: «أتدرون من أخذتم؟» قالوا: لا والله يا رسول الله!! قال ﷺ: «هذا ثمامة بن أثال. هذا سيد بني حنيفة وفارسها، أحسنوا إيساره». رجع الرسول ﷺ إلى أهله، فقال: «اجمعوا ما كان عندكم من طعامكم فابعثوا به إليه»، وأمر بلقحته أن يغدى عليه بها ويراح. ثم خرج إليه فقال ﷺ: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال ثمامة: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعم تُنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال، فسَل منه ما شئت. فتركه حتى كان بعد الغد فقال ﷺ: «ما عندك يا ثمامة؟». فقال ثمامة: عندي ما قلت لك. قال أبو هريرة رضي الله عنه: فجعلنا نحن - المساكين - نقول بيننا، ما نصنع بدم ثمامة!! والله لأأكله من جزور سميئة من فدائه أحبُّ إلينا من دم ثمامة!! فقال ﷺ: «أطلقوا ثمامة». فانطلق ثمامة إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً

رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فقد أصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي» ثم أقبل فبايع النبي ﷺ على الإسلام، فلما أمسى جاؤوا بها كانوا يأتونه من طعام فلم ينل منه إلا قليلاً، وجاؤوا باللقحة فلم يصب من حلابها إلا يسيراً، فتعجب من ذلك المسلمون فقال رسول الله ﷺ: «ما يعجبون من رجل أكل في أول النهار في معاء كافر وأكل من آخر النهار في معاء مسلم، الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معاء واحد». ثم قال ثمامة ؓ: يا رسول الله إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت يا ثمامة؟ فقال: لا، ولكنني اتبعت خير الدين دين محمد. فأرادوا ضرب عنقه. فقال قائل منهم: دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليمامة لطعامكم، فخلوا ثمامة ابن أثال. ولما تركوه قال: «والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ»، فقال الحنفي في ذلك:

وَمِنَّا الَّذِي لَبَّى بِمَكَّةَ مُعَلِّناً
بِرَّغَمِ أَبِي سُفْيَانَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرِّمِ

ثم خرج إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً. وكانت اليمامة بلد ثمامة ؓ من الأرضين الخصبة في جزيرة العرب. قال عنها

أهل الأخبار: كانت من أحسن بلاد الله أرضاً، وأكثرها خيراً وشجراً ونخيلاً من سائر الحجاز، وقد نُعتت بـ «ريف مكة» إذ كانت تمون مكة بالحبوب. فلما أضر بهم كتبوا إلى رسول الله ﷺ إن عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم، وتحض عليها، وإن ثامة قد قطع عنا ميرتنا وأضر بنا، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلي بيننا وبين ميرتنا فافعل. فكتب الرسول ﷺ إلى ثامة: «أن خلّ بين قومي وبين ميرتهم»، ثم قدم ثامة على النبي ﷺ فقال: «يا ثامة لا يثأر المسلم بالكافر، ولكن ارجع إلى قومك فادعهم إلى الإسلام، فمن أقر منهم الإسلام، واتبعك فانطلق إلى بني قشير ولا تقتلهم حتى تدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن بايعوك حرمت عليك دماؤهم، وإن لم يبايعوك فقاتلهم». فدعا ثامة قومه فأسلموا معه، ثم غزا بني قشير فتأربأ به. ظل ثامة ﷺ وفيّاً لدينه حافظاً لعهد نبيه ﷺ أسيراً لإحسانه، فلما التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، وخرج الأعراب من دين الله أفواجاً وقام مسيلمة الكذاب في بني حنيفة يدعوهم إلى نبوته المزعومة وقف ثامة موقفاً شجاعاً في وجهه. وكلما وسوس له الشيطان بالردة عن دين الله عصمه إحسان الرسول ﷺ إليه فقال: أهم بترك القول ثم يردني إلى القول إنعام النبي محمد:

شَكَرْتُ لَهُ فَكَيِّ مِنَ الْغُلِّ بَعْدَمَا رَأَيْتُ خَيْالًا فِي حُسَامٍ مُهَنَّدٍ

وكان ثامة يقول لأصحابه: إن محمداً لا نبي معه ولا بعده، كما أن الله تعالى لا شريك له في ألوهيته، فلا شريك لمحمد في نبوته يا قومي، أين قول مسيلمة: يا ضفدع، نقي نقي كم تنقين! لا الماء تكدرين ولا الشرب تمنعين!! من قول الله تعالى الذي جاء به محمد ﷺ: ﴿حَمَّ نَزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَاثِ الذُّبِّ وَقَايلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝٣﴾ غافر [١ - ٣].

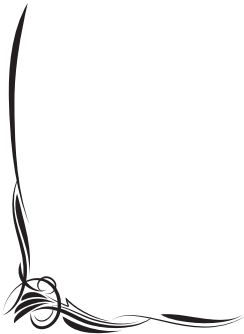
* كنوز إسلامية - سلسلة من نحب - صحابة الرسول ﷺ ١٦.

(ب)

المشهد الثاني روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ في وادٍ كثير العضاء (شجر فيه شوك)، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، فقال رسول الله ﷺ: «إن رجلاً أتاني وأنا نائم، فأخذ السيف، فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلا والسيف صلت في يده، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، فشام السيف (رده في غمده) فيها هو ذا جالس»، ثم لم يعرض له الرسول الكريم ولم يعاقبه وجلس.

وفي رواية الإمام أحمد أن الرجل قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ فقال ﷺ: الله عز وجل.. فسقط السيف من يده، فأخذه الرسول الكريم فقال للأعرابي: من يمنعك مني؟ فقال الأعرابي: كن كخير آخذ، فقال ﷺ: «أتشهد أن لا إله إلا الله»؟ قال: لا، ولكنني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فذهب الرجل إلى أصحابه، فقال: قد جئتكم من عند خير الناس..

* المكتبة الشاملة - كتاب السيرة النبوية ج ٢ - ص ٣١٣



ما رأيت !!

مشهدان مؤثران مَسّا حياة رسول الله ﷺ مباشرة من قبل شخصين بيّتا النية على قتله، كارهين له، ولدينه غير مباليين ولا مراعيين لأتباعه أو حرمة كشخص لم يرتكب جرماً يستوجب القتل ولا للأعراف المتبعة في جزيرة العرب.. فكان إعجابي الأكبر في كيفية تصرفه مع الشخصين عندما تمكّن منهما، حيث عاملهما معاملة تتناقض كلياً مع ما يستحقه كلاهما، ولا يمكن لأي من أساطين الحكمة على سطح الأرض منذ الخلق الأول وحتى قيام الساعة أن يعمل ما عمله رسول الله ﷺ مع قاتل اعترف على نفسه أنه تربص الدوائر بالرسول ﷺ ليقتله بدافع الكره ليس إلا.. إن معاملة سيد الخلق ﷺ الغريبة للرجلين بعد اعترافهما أنهما عزمّا على قتله كلّ في وقته وموقعه، عززت حبه في قلبي فكل مواقفه ﷺ تعزز هذا الحب الشديد.. فالسلوك العملي لهذين الرجلين المصممين على قتل الرسول الكريم ﷺ ثم ردة فعله بعدما تمكن منهما يؤكد لكل ذي عين بصيرة أنه ﷺ صُنع على عين رب العزة فاستحق أن يكون خير البرية؛ لذلك حمل بين جنبيه قناطير مقنطرة من الرحمة والشجاعة والبصيرة الثاقبة، والحكمة، وبعُد النظر. فهو يزن الأمور بمقاييس

لا نظير لها، ويستشرف المستقبل - بفضل من الله - كأنه ماثل أمامه، إضافة إلى أناته، وثقته بنصر الله، ثم ثقته بنفسه، كل ذلك جعله يتصرف بما لا يخطر على قلب أحد من البشر. يعفو عمن ظلمه، وعمن عزم على قتله، فضلاً عن قتله أصحابه ومجاهرته بعداوة الرسول الكريم ليل نهار. ولما وقع بين يديه تركه كأنه لم يفعل شيئاً.

وأنا أمعن النظر في سلوكه معها تخيلت - وإن كانت المقارنة غير ممكنة بالمطلق - الأحنف بن قيس، ثم عاصم بن قيس المنقري الذي تعلّم الأحنف عنه الحكمة والأناة. فالأحنف كما ذكرت كتب العرب سيد من سادات بني تميم، داهية من دهاة العرب، ضُرب به المثل في حلمه وحكمته.. فلو حصل له ما حصل مع سيد المرسلين ﷺ لما صبر دقيقة من دون أن يجهز عليهما، ولن يعطي أيّاً منهما فرصة لسؤال واحد فقط لعظم جريمتيهما. هذا الرجل المشهود بحلمه أهر الناس، فسألوه عمن تعلمت الحِلْم؟ فقال: تعلمته من قيس بن عاصم المنقري، حيث رأيته يوماً قاعداً بفناء داره، محتبياً بحمائل سيفه، يحدث قومه، فإذا برجل مكتوف، ورجل مقتول، ف قيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك، فو الله ما حل حبوته، ولا قطع كلامه حتى فرغ من حديثه، ثم التفت إلى ابن أخيه وقال له: يا ابن أخي، بئسما فعلت، أثمت بربك، وقطعت رحمك، وقتلت ابن عمك، ورميت نفسك بسهمك، وقللت عددك. ثم قال لابن آخر له: قم يا بني

فوار أخاك، وحلّ كتاف ابن عمك، وسُق إلى أم القتيل مئة ناقة دية عن ابنها فإنها غريبة منا، ثم أنشأ يقول:

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعَزِيَةً إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابْتَنِي وَلَمْ تَرِدِ
كِلَاهُمَا خَلَفَ مَنْ فَقَدَ صَاحِبِهِ هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ وَذَا وَلَدِي

وفي هذا المقام أنقل ما قيل عن صلة بن أشيم: أن رجلاً دخل عليه وبين يديه طعام فنعى إليه أخاه. فقال له: هلم، فتعجب الرجل وقال: هل سبقني إليك نعيه أحد؟ قال: نعم، قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] و ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

مشهدان يشهدان على حلم بطليهما اللذين نالا بهما وبغيرهما أن يكونا من أشهر حكماء العرب، فصارا مضرب الأمثال يُتناقل خبر حلمهما جيلاً بعد جيل، فإن بدا فعلهما مستغرباً في لحظات يغيب فيها العقل، وتسيطر العاطفة على المفجوع، فالباري جلّت قدرته لمّح إلى حق ولي المقتول بظلم، وطلب منه أن لا يسرف في القتل. يقول جل شأنه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] فالحق سبحانه وتعالى يحرم قتل النفس الواحدة وهي مسؤولية الجميع؛ لذلك لا يُكتفى بأن يُسأل القاتل عن النفس التي قتلها، بل المجتمع كله مسؤول عن

هذه الجريمة التي حرم الله قتلها؛ لأنها ببيان الله وخلقه وصناعته، وبيان الله لا يهدمه أحد غيره، فقتلها من غير خالقها مرهون بأسباب تستوجب ذلك وهي محددة من قبل الباري (إلا بالحق) أي اقتلوها بالحق، ويراد بالحق: «القصاص من القاتل الذي يقتل متعمداً القتل، والذي يرتد عن الإسلام، والذي يزني وهو محصن أو تزني وهي محصنة». وقد أثار أعداء الإسلام ضجة كبيرة حول هذه الحدود وغيرها، واتهموه بالقسوة والوحشية، وحثتهم أن هذه الحدود تتنافى وإنسانية الإنسان وآدميته، وتتعارض مع الحرية الدينية في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ففي القصاص قالوا: لقد خسر المجتمع واحداً بالقتل، فكيف نزيد من خسارته بقتل آخر - وإن قُتل -؟ لكن الواقع يحتم علينا أن نستقبل أحكام الله بفهم واع، ونظرة متأملة، فليس الهدف من تشريع الله القصاص كثرة القتل بل ألا تحدث هذه الجريمة من البداية. فحين نخبرنا الحق سبحانه أن قتلنا لإنسان يستوجب قتلنا فهو يحمي حياتنا وحياة الآخرين، فليس لدى الإنسان أغلى من حياته، حتى القاتل، لم يقتل إلا لأنه يحب الحياة؛ فربما خُذشت عزته أو كرامته وربما لأن عدوه أقوى منه، فخشي على حياته الغالية فاستبق وقتل. فنحن نقول له: إن قتلت فسُتُقتل، فإننا وضعنا بين يديه جزاءه لكي نمنعه أن يقدم على هذه الجريمة، حيث لو حناله بأقصى ما يمكن من العقوبة، ولذلك قالوا: القتل

أنفى للقتل. وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

هذا نداء لأصحاب القلوب والعقول الواعية، فليس القصاص كما يظن البعض، بل فيه الحياة وفيه سلامة المجتمع وحقن الدماء.

إن سلوك الرجلين قيس بن عاصم، وصلة بن أشيم للوهلة الأولى يبدو لنا مستغرباً، فأين الحمية في قلوبهما؟ ألم يثر فيهما حب الثأر الحماسة للانتقام تحت مسمى «فورة الدم» من قاتلين سفكاً دمين بريئين. فأقول: الهوينى، الهوينى، هذه نفوس ارتقت كثيراً وترفعت لأنها صاحبة بصيرة، وصارت تنظر إلى مكانة الإنسان وحرمة بُعد المشرقين والمغربين. فأيقنت أن قتل القاتل لن يعيد القتيل، بل سيزيد الآهات ويُفقد المجتمع عضواً آخر، فبقاؤه على قيد الحياة أنفع إن لم يتكرر فعله المشين بسفك دم جديد.

ولنلاحظ أن الرجلين تصرفا مع غريمين قتلا من له صلة بهما، أما المصطفى ﷺ فمختلف بالكلية. فشعور من قُتل له ابنٌ أو أخٌ لن يكون بمستوى شعور من دُبِّرَ قتله، وكاد القاتل ينفذ ما دبر لولا لطف الله، الأمر هنا إزهاق روح النبي ﷺ التي بين جنبيه، لا روح غيره، وإن كان قريباً منه. فإن سنحت الفرصة لمن هُدِّد بالقتل أن يقتل خصمه ليدفع عن نفسه الموت فلن يتأخر ثانية واحدة، هذا لم يحصل من سيدي ﷺ والذي يحمل بين جنبيه نفساً بشرية كأي منا؛

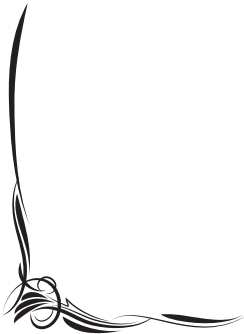
لذلك تصرف بها هو مخالف بالمطلق. فالرجل أشهر سيفه. وهمّ بقتل المصطفى ﷺ لكنه فشل، وسقط السيف أرضاً فالتقطه المصطفى ﷺ نظر إليه وقد تمكّن منه مئة بالمئة. فالرجل يستحق القتل إذا ما عوقب بنيته. فقد قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات» رواه البخاري ومسلم. كما أن الشرائع الأخرى والأعراف تؤيد ذلك، فالعازم على القتل هو يعترف بعظمة لسانه بما جاء من أجله، لكن فعل المصطفى ﷺ جاء مغايراً لكل التوقعات، حيث يُترك القاتل كأنه لم يفعل شيئاً.. هذا - والله - مشهد عجيب، غريب لا يصدر إلا عن رسول كريم، جعلني أتحيل مباشرة لو أن أحداً في موقف المصطفى ﷺ نائم، وبمجرد أن فتح عينيه وجد فوق رأسه رجلاً امتلاً حقداً وضعينة، مصمماً على قتله، سيفه خارج غمده يحركه، ويقول بكل ثقة بالنفس: من يمنع قتلي لك؟ تصوّرت حجم المفاجأة ثم بلمحة وصلت يدي السيف، أتردد لحظة من دون قتل الرجل؟ فروح الانتقام المشروع ستفعل فعلها مباشرة خوفاً من تكرار الفعل إن تمكّن الرجل مستقبلاً من التقاط السيف ثانية..

أما في المشهد الأول فالرجل عزم أن يأتي المدينة ليقتل الرسول ﷺ لكنه منع من قبل أبناء عمومته، وبمجرد أن سنحت له الفرصة لم يفوتها، حيث قتل غير صحابي من صحابة الرسول ﷺ كما استخف بسفيره عندما حمل إليه رسالة المصطفى ﷺ وما زال يبحث عن

فرصة موأتية ليقـتله ويخلص الناس بزعمه منه - خاب ظنه وعزمه - فجأة هذا الحالم يجد نفسه بين يدي الرسول الكريم ﷺ ويقر بما دبر له من قتل؛ ثم يصرح بعظمة لسانه أنه يستحق القتل، لكن خير البشرية يتصرف معه كنزِيل يُكرمـه، ويقدم له الطعام والشراب، وفي نهاية المطاف يُطلق سراحه كأنه لم يفعل شيئاً.

ما جرى بتقدير من حيثيات المشهدين لا تسمح لأي شخص مهما كانت حكمته وأناته وصلابة أعصابه أن يفوت فرصة القصاص من طالبي قتله باستثناء رسول الله ﷺ المعلم الذي أعلى حب الحياة على الموت، وجاد بالعفو على شخصين يستحقان القتل، القتل. هذا المتسامح الساعي إلى استبقاء النفس على قيد الحياة على الرغم من عزمها على القتل لعلها تصلح، ألا يستحق أن أحبه أكثر من نفسي وأهلي؟ بالتأكيد، بلى، وألف بلى.. في المقابل كان بعض الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - ينتظرون بفارغ الصبر بما سيأمر الرسول الكريم بحق ثامة بن أثال، فلم يخطر ببال أحدهم أنه سيصفح عنه على الرغم من بشاعة جرمه، فسنام ثامة ما كان يتمناه من الرسول الكريم أن يقبل منه فداء؛ لأن جرمه يستحق إنفاذ القصاص به لا محالة. كل في موقعه وزمانه حتى يرتدع من تسول له نفسه في إيذاء الرسول ﷺ أو أصحابه رضي الله عنهم ذلك سيكون بعد أن يحاكمه ليسمع الجميع إقراره بأنه قاتل. الجموع تترقب إصدار الأمر كأن على رؤوسهم الطير، ويتوقعون أن يقول المصطفى ﷺ: أخيراً يا

من تربصت بي الدوائر وبأصحابي قد وقعت في يدي فاختر الميته التي تناسبك. هذا الكلام برأيي كافٍ لأن يهز كيانه الرجل المحبب ويقربه من حنقه، لكن سيدي فاجأ الجميع على الرغم من إهداره دم ثمامة من قبل بسبب ما ارتكبه بحق الرسول الكريم وحق أصحابه الأبرياء الذين قتلهم بغير سبب، فجاءت المفاجأة مدوية، حيث أمر بإطلاق سراحه. تعجب الصحابة -رضوان الله عليهم- مما سمعوا لكنهم تسابقوا لإنفاذ أمر سيدهم. كما لمحت فيه ردًا واضحًا على أعداء الإسلام الذين يتشدقون ليل نهار بأن الإسلام دين قتل وسفك للدماء، فأقول بالله عليكم لو كان أحدكم في موقف الرسول وغريمه بين يديه قد قتل أحب الناس إليه فماذا سيفعل معه؟ أتركه حرًا طليقًا بعد أن تمكن منه.



(٦)

موقف الرسول الكريم الجابر لخواطر الآخرين

كان الرسول ﷺ يجبر خواطر أصحابه سواء أكانوا صغاراً أم كباراً حتى يبعث فيهم الفرح، وينشر بينهم المحبة والألفة. فكثير من الناس يظنون أن ديننا الحنيف يقتصر على قيام أتباعه بأداء أركانه الخمسة من شهادتين، وصلاة، وزكاة، وصوم، وحج لمن استطاع إليه سبيلاً، لكن حقيقة الدين أكبر من دائرة الأركان التي بموجبها يكون المرء مسلماً. فالحكم على المسلم من خلال سلوكه العملي، وليس من خلال أدائه للعبادات فحسب؛ لذلك أضع بين يدي القارئ بضعة مواقف اجتماعية حدثت بين الصحابة الكرام، فكان للرسول الكريم مواقف منها، حيث جبر خواطر أصحابها، بادئاً بالأهم..

لما سمعتَ مَنْ الشَّفِيعِ عبارةً غَمَرْتُكَ غَمْرًا بِالتَّأْسُفِ والنَّدَمِ
جِئْتُ الَّذِي عَيَّرْتَهُ بِسَوَادِهِ وَفَرَشْتَ خَدَّكَ كَيْ يَدُوسَكَ بِالقَدَمِ

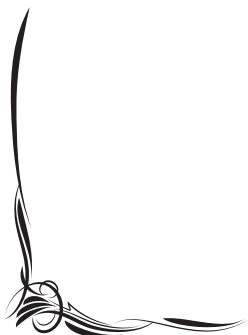
(١)

الرسول ﷺ يجبر خاطر مؤذنه بلال رضي الله عنه لما أعيب عليه لون أمه

في أحد المجالس العامة تبادل بعض الصحابة الآراء حول قضية معينة، فأدلى أبو ذر الغفاري برأيه. فلم يحز رأيه قبولاً لدى كثير من

الصحابة، ومنهم سيدنا بلال بن رباح. فرد عليه سيدنا أبو ذر قائلاً: حتى أنت يا ابن السوداء تخطئني؟، هنا غضب سيدنا بلال بشدة، وغادر المجلس، وذهب إلى النبي الكريم ليشكو له أبا ذر. فأحضر النبي الكريم أبا ذر، وعاتبه، قائلاً: «يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم». هنا شعر أبو ذر بعظم ما قاله فطلب من سيدنا بلال أن يقتص منه على ما قال، ليرد عليه اعتباره أمام الناس، فأمسك بلال يد أبي ذر -رضوان الله عليهما- قائلاً: غفر الله لك.

* المكتبة الشاملة الحديثة، ج ٣٢، ص ٢٧١



ما رأيتم؟

إن صحابة رسولنا الكريم ﷺ قناديل هذه الأمة بحق يهدوننا بأمر الله تعالى ويهدي الرسول الكريم إلى طريق الرشاد. فديننا الحنيف ركّز على سلوك المسلم، وطلب منه أن يطبق تعاليم الدين أولاً فأولاً، والقرآن الحكيم تنزل على الرسول الكريم منجماً ولفترة امتدت قرابة ثلاثة وعشرين عاماً مع أنه نزل من اللوح المحفوظ دفعة واحدة إلى السماء الدنيا قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] فالهدف من نزوله على قلب الرسول الكريم منجماً أن يحفظه الصحابة الكرام في صدورهم ثم يطبقوه ليكون سلوكاً عملياً حتى تغدو أخلاقهم عاملة بالقرآن. مستهدفاً بث المحبة والألفة في نفوسهم، ودعاهم إلى التعاون على البر والتقوى والإرشاد والنصح فيما بينهم. فقد قال رسولنا ﷺ: «الدين النصيحة»، كما أكد على صحابته وتابعيه في أحاديث كثيرة من هديه أن يعملوا بموجب ما اقتضته مضامين الآيات الكريمة؛ لذلك اجتهد بعضهم، وقال قوله انتشرت بين الناس حتى ظنّها البعض أنها حديث شريف: «الدين المعاملة»، فأيات كثيرة في القرآن الكريم اقترن الإيمان فيها بالعمل الصالح، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عَمَلٌ وَالْعَمَلُ

الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿[لقمان: ٨]﴾، وقال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ﴿البقرة: ٢٥﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝﴾ ﴿[الكهف: ٣٠]﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝﴾ ﴿[الكهف: ١٠٧]﴾. إن قرن المؤمن بإيمانه بالعمل الصالح نال عند الله جزاءً عظيمًا، والذي يطمح إليه كل مؤمن بالله على وجه الأرض حتى يدخل الجنان..

هذا الجمع بين الإيمان والعمل الصالح جعلني أجزم أن الحكم على المسلم لا يكون إلا من خلال سلوكه العملي اليومي، إضافة إلى أدائه العبادات التي بُني عليها الدين لكونها جناحي المؤمن للإقلاع في الحياة الدنيا، مستهدفًا رضا الله ورحمته، طامحًا إلى دخول الجنة. موقف سيد البشرية ﷺ أثر بأبي ذر، وأشعره بعظم ما قاله فطلب من بلال ؓ أن يقتص منه أمام الرسول الكريم لعله يكفر عن خطئه، لكي يرد له اعتباره أمام الناس، إلا أنه رفض ذلك، وأمسك يد أبي ذر قائلاً: غفر الله لك ..

هذا الموقف من الصحابييين دفعني لتأمل سير بعض الصحابة قبل دخولهم الإسلام وبعده فذهلت حتى لم أكد أصدق مدى تأثير الإسلام في سلوكياتهم التي تغيّرت «١٨٠» درجة كما يقال؛ ولكيؤكد هذا الكلام أسوق جزءاً من سيرة سيدنا عمر بن الخطاب ؓ

حيث غيَّرتَه تعاليم الدين، وهدى الرسول الكريم كليًّا، فعمر قبل الإسلام وبخاصة في طفولته وصباه عاش حياة قاسية للغاية يرمى الأغنام، وكان معروفًا ببطشه وقوته وشجاعته التي لم تخف على ذي بصيرة في مكة، وإن كانت محمودة في عصره إلا أنها زادت عن حدها، وشطحت بعيدًا فقبيل إسلامه بلحظات تلمسنا عنفها عندما اعتدى على صهره وابن عمه زوج أخته بل على أخته فاطمة التي أدامها ناهيك عن عزمه على البحث عن رسول الله ﷺ ليقترله كونه عاب ديانة الآباء والأجداد.

هذه لقطة من حياته قبل إسلامه ما لها وما عليها قد تغيرت بالكلية بعدما أنار الإسلام قلبه، فغدا أراف الناس بالناس، وأكثرهم حرصًا على راحتهم منهم. فيذكر أنه ﷺ سمع في إحدى الليالي بكاء صبي، فتوجه نحو الصوت، فقال لأمه: اتقي الله، وأحسني إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاء ثانية، فعاد إليها ثانية، وقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان آخر الليل سمع بكاء الطفل؛ فأتى أمه، فقال: ويحك إني لأراك أم سوء، ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: يا عبد الله قد أبرمتني؛ إني أدربه على الفطام فيأبى. قال لها: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض عطاء إلا للفطم. قال: وكم له من العمر؟ قالت: كذا وكذا شهرًا. قال: ويحك لا تعجلية، ثم صلى الفجر بالناس، وما يستين الناس قراءته من غلبة البكاء عليه، فلما سلّم قال: يا بؤسًا لعمر! كم قتل من أولاد المسلمين! ثم

أمر منادياً ينادي لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام؛ فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام، وكتب بذلك إلى الأمصار. فعمر المسلم ﷺ تغير عن عمر الجاهلي مئة بالمئة، وأصبح شخصية أخرى مغايرة عن الأولى، ذات عواطف جياشة، وقلب رقيق، تخاف الله خوفاً لا حدود له.. فكان ﷺ إذا سمع القرآن يُتلى فاضت عيناه دمعاً. فمن كثرة بكائه رسم الدمع خطين على خديه. لذلك سُمِّي بكاءً، ليس هذا فحسب بل تراه يتفانى من أجل الآخرين، وخدمتهم فبمجرد أن سمع بكاء الطفل ليلاً لم يرسل نائباً عنه للمرأة، ليأمرها أن تُسكت الطفل، أو تغادر المكان وطفلها حتى لا يزعج بكاءه أمير المؤمنين، بل ذهب بنفسه إليها غير مرة، وطلب منها أن تحسن إلى رضيعها فقد ألمه بكاءه إلى درجة أنه اتهم المرأة بأنها امرأة سوء.

هذا التحول الكلي بذرة غرستها تربية سيدي رسول الله ﷺ في نفوس أصحابه فأثمرت تواضعاً وتفانياً ورقة وحناناً واجتشت كل قسوة من قلوبهم. فهو لاء الصحابة ﷺ بذلوا كل جهد ممكن ومتاح حتى يطبقوا آيات القرآن الكريم لتصبح سلوكاً عملياً في تعاملاتهم مع الآخرين.. فرب سائل يسأل في هذا المقام: هل أغفل عمر ﷺ حق الرضع من العطاء؟ إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لم يغفل عطاء الرضع؛ بل رآه في عطاء أمهات الأطفال. فالرضيع يأخذ الحليب من صدر أمه التي تأخذ عطاء كاملاً من بيت المال، فعطاؤه ضمن عطاء أمه. لكن عمر ﷺ بمجرد أن عرف ما يسببه حجب

العطاء عن الرضيع من ألم، وضرر تراجع عنه ولم يكتمه، بل أصدر قراراً يشمل كل الأمصار.. أي نظرة موضوعية لهذا التراجع تجعلنا نقف إجلالاً وإكباراً للفعل أمير المؤمنين الذي لم يفكر لحظة بما سيقوله الآخرون عنه، وهو يتراجع عن قرار اتخذه من قبل. فتفكيره انصرف مباشرة إلى المصلحة العامة التي تعود بالنفع على رعيته بشكل عام، وعلى الأطفال وأسرهم بشكل خاص بعد أن أيقن أن في عطاء الرضع استقراراً، وأماناً لأسرهم، ونمواً طبيعياً لأجسامهم، ضارباً عرض الحائط بكل ما سيقوله المتربصون به من نقد وتشكيك.. رحمك الله يا أمير المؤمنين، ورحم أصحابك أجمعين، حيث غدوتم قناديل أمتنا وهداتها بعد أن أثمرت فيكم تربية الرسول الكريم ومواقفه المشهودة التي غيرت سلوكياتكم اليومية. وبعثت الحب والأمان والراحة في نفوسكم ما دفع المتعاملين معكم من قرب إلى القول: (إنكم قرآن يمشي على الأرض). هذا المعنى عبر عنه القرآن الكريم بوضوح في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَبَّيُّهُمْ رُكْعًا سَجَدًا يَتَعَوَّنَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩]

وورد في صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ نظر يوماً إلى السماء فقال: «النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهب النجوم

أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»، وهناك حديث عن الرسول ﷺ وهو من حديث عبد الله ابن مغفل في سنن الترمذي أن النبي ﷺ قال: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك الله أن يأخذه»، قال الترمذي: حديث حسن غريب.

هذه المكانة الرفيعة للصحابة لا يرتقي إليها آخرون؛ لأنهم هم السابقون إلى دخول الإسلام؛ كأمثال أبي ذر ما قد يوحى لبعضنا نحن - البشر - أن لأبي ذر الغفاري حظوة خاصة عند الرسول الكريم نالها بسبب أسبقيته إلى دخول الإسلام، لكن الحقيقة مغايرة تمامًا، فبمجرد أن توعد الصحابي ﷺ أن يشكوه إلى الرسول الكريم تسلل الرعب إلى قلبه؛ لعلمه علم اليقين أن الرسول سيكون حاسماً ولن يتهاون أبداً معه، ولن يكتفي باستدعائه ليعاتبه على مقولته ثم يأمره بالآل يتكرر فعله، وسيطلب منه أن يطيب خاطر بلال ؓ، ويدعو له، وبذلك ينتهي كل شيء.. هذه معالجة قاصرة قد تخطر على بال أحدنا بسبب الأعراف التي كانت سائدة في المجتمع القبلي الجاهلي الذي فرّق بين السيد والعبد، والفقير والغني، وذو الحسب والنسب وغيره.. فنظرة المجتمع الجاهلي إلى العبد ومن يماثله من فقراء وغير ذي حسب أو نسب كنظرتهم للمتاع يباع ويشترى. فلا حقوق

إنسانية للعبيد كغيرهم من السادة الأحرار الذين تُحفظ حقوقهم بحكم الأعراف. أما العبد وما مثله فلا يقوى أحد على دفع الحيف عنه إن لحقه من قبل حرّ. وليكن في اعتبارنا أن تعاليم الإسلام حديثة لم يمض على تطبيقها إلا وقت قصير. فكلا الرجلين لم يمضيا بعد وقتاً طويلاً مع تعاليم الإسلام، حتى تتمكّن من اجتثاث هذه الفوارق من القلوب؛ لأنها متأصلة منذ عشرات السنوات. يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلاً بعد جيل. إلا أن المفاجأة لهؤلاء الواهمين تجلت بموقف الرسول الكريم ﷺ الجلي لكل ذي لب، حيث ابتعد بالكلية عن المجاملة، منطلقاً من تعاليم الدين الحنيف بأن المسلمين متساوون في الحقوق والواجبات فلا فرق بين عربي وعجمي، ولا أبيض وأسود، ولا غني وفقير. فكلهم سواسية كأسنان المشط، بل أكرمهم عند الله أتقاهم بغض النظر عن نشأته أو عرقه أو لونه. هذا الموقف الحاسم والقوي من رسول الله ﷺ تجاه الحدث جعل أبا ذر يتمنى على الله لو أن روحه قبضت قبل أن ينطق بتلك المقولة، فتراه يطلب من الصحابي أن يقتص منه فلعله بذلك يعيد إليه اعتباره أمام الناس، ولكي يخلص نفسه من الألم الذي انتابها بسبب مقولته..

هل تصورت - يا من رعاك الله - أن يحصل هذا الفعل من شخص كان منذ وقت ليس ببعيد يتمسك بعباداته الجاهلية، بل يصارع من أجلها؟ هل توقعت أن الدين الجديد خلال السنوات المعدودات سيتمكن من اجتثاثها من نفوس أتباعه؟ بالتأكيد يصعب

هذا؛ لذلك نرى أبا ذر الغفاري مجرد أن خالفه الصحابي بلال رضي الله عنه - الأقل منه منزلة حسب الجاهلية - الرأي انتفض في وجهه يعنفه كما في عاداته الجاهلية، حيث رجعت إليه عنجهيته الكامنة في نفسه بفعل الزمن، فانطلق لسانه بعبارات قاسية توحى بكَمَّ الغضب الذي يعمر قلبه على من أبدى مخالفته له الرأي كونه أقل منه فكان يفترض على بلال رضي الله عنه أن يجامل ذوي المكانة حسب الجاهلية كأبي ذر لقد بزت عصبيته تلك اللحظة تعاليم دينه. بدليل أن ما أبداه أمثاله منزلة من مخالفة لرأيه بقي مخبوءاً في صدره فلم يُثر حفيظته عليهم، لكنه فرغها بوجه الأقل منزلة منه بمجرد أن أبدى رأياً عاكس هواه اندفع يقول وبكل استخفاف يعيِّره بلون أمه.. للأسف الشديد فقد جامل أمثاله، وكتَمَّ غيظه عنهم.. أليس هذا بتصرف جاهلي؟ لكننا من وجهة نظر أخرى لو دققنا في تصرف أبي ذر أكثر لعلمنا كم كان أهل الجاهلية يحتقرون الطبقة الفقيرة والعيبد وينظرون إليهم نظرة دونية حتى إبداء الرأي أو مجرد مخالفة رأي السيد ممنوع عليهم لأنهم مختلفون في النشأة والمكانة.. لكن الإسلام أنصف هؤلاء الناس، وأعاد إليهم إنسانيتهم، ووقف ناصراً لأصحاب الحق منهم، واضعاً حداً لهذه الفوارق الطبقية المقيتة. فتعاليمه السامية ساوت بين الخلق جميعاً؛ فكلهم جاؤوا من ذكر وأنثى. وليس لأحد منهم حرية اختيار نشأته. فالحر والعبد، والغني والفقير وغيرهم يتساوون في الحقوق والواجبات مهما اختلفت النشأة والبيئة. فهذا هو السيد الحر أبو ذر

أمام الجمع الغفير يطلب من مُغضبه - بلال رضي الله عنه أن يقتصر عله يكفر عن خطئه..

إن وقفة موضوعية أمام المشهد تدل دلالة قاطعة على نجاح الرسول ﷺ نجاحًا باهرًا في دعوته، وإيصاله تعاليم الدين الحنيف التي دخلت القلوب، ورسخت فيها، ثم تطبيقها كاملة غير منقوصة.. في هذا المقام أتذكر مسلك الملك الغساني غداة دخوله الإسلام، لدى طوافه:

(وفي خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه أن جبلة بن الأيهم جاء إلى المدينة، وكان آخر ملوك الغساسنة ليعلن إسلامه، فرحب به عمر أشد الترحيب، وفي أثناء طواف هذا الملك حول الكعبة داس بدوي طرف إزاره. فغضب الملك الغساني، والتفت إلى البدوي، وضربه فهشم أنفه، فما كان من البدوي من فزارة إلا أن توجه إلى الخليفة عمر بن الخطاب شاكيًا، فاستدعى عمر الملك الغساني إلى مجلسه وجرى بينهما حوار قال عمر: «جاءني هذا الصباح، مشهد يبعث في النفس المראה. بدوي من فزارة بدماء تتظلم، بجراح تتكلم، مقلة غارت، وأنف قد تهشم، فسألناه فألقى فادح الوزر عليك بيديك، أصحيح ما ادّعى هذا الفزاري الجريح؟» قال جبلة: «لست ممن ينكر، أو يكتم شيئًا، أنا أدّبت الفتى، أدركت حقي بيدي». قال عمر: «أي حق يا ابن أيهم، عند غيري يقهر المستضعف العافي ويظلم، عند غيري جبهة

بالإثم والباطل تُلطم، نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية، قد دفناها وأقمنا فوقهما صرحاً جديداً تساوى فيه الناس سواء كانوا أحراراً أم عبيداً؟ أرض الفتى، لا بد من إرضائه مازال ظفرك عالقاً بدمائه، أو يهشمن الآن أنفك، وتنال ما فعلته كُفك». قال جبلة: «كيف ذاك يا أمير المؤمنين؟ هو سُوقة وأنا صاحب تاج، كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً، كان وهماً ما مشى في خلدي، أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد إذا أكرهتني»، قال عمر: «عالم بنيه كل صدع فيه بشبا السيف يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى». لم يستوعب جبلة بن الأيهم هذا المعنى الكبير للدين الإسلامي، وفرّ من المدينة هارباً مرتداً، «تمت ما كنت أحسب أنه في صدرك من كبر الجاهلية شيء».

لم يبالِ عمر وأصحابه بهذه النتيجة؛ لأن ارتداد رجل عن الإسلام أهون بكثير من التهاون في تطبيق مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام، وخسارة فرد لا تقاس بخسارة مبدأ. فذكرت بعض الروايات أن جبلة بن الأيهم في نهاية حياته ندم أشد الندم على تركه الإسلام، وعودته إلى النصرانية.. وبالعودة إلى موقف الصحابي الجليل أبي ذر نجده مختلفاً بالكلية فقد ثبتّه ربه على دينه، فرضي بالحكم العادل لرسول الله عليه، كاشفاً عن تمكّن الدين من قلبه وليس لسانه فقط، لم يكن همه أبداً أن يجني مكاسب كما ظن الملك الغساني؛ فتعاليم الدين جرت في جسمه مجرى الدم، فغدا همه الأول والأخير إرضاء

الله، وتنفيذ حكم الرسول الكريم عليه. بينما نرى في المقابل الطرف الآخر الشاكي ينتظر من رسول الله أن ينصفه ويخبر خاطره، ويعيد إليه اعتباره أمام الآخرين.. كم كانت سعادته بدين ينصفه وبخاصة لدى سماعه الرسول الكريم يقول لخصمه عبارته المشهورة «تمت ما كنت أحسب أنه في صدرك من كبر الجاهلية شيء» فتزيد سعادته أكثر بإقرار أبي ذر الغفاري له بالحق، وهو الحر القوي بعصبيته، فيقول بصوت مسموع أمام الحاضرين ما معناه «اقتصص مني» هذه العبارة ساوت عند بلال ؓ كل ما على الأرض من خيرات؛ لأنها أعادت له ترياق الحياة من جديد، وحملت أطنان الحب، والتعلق بهذا الدين المنصف الذي نفض عنه سُبَّة العبودية لغير الله، وأثقالها وذلها، لكن بالمقابل تعاليم الدين أنصفته وأعادت إليه حقه كاملاً. فهي تدعوه إلى الصفح والتسامح.

يا لله كم كان صحابة الرسول الكريم رجالاً! فأبو ذر ندم على مقولته تلك، وشككت له، ولغيره درساً لن ينسوه أبداً، أما بلال ؓ فأعيد إليه اعتباره من دون أن ينبس ببنت شفة بفضل الله، ثم بعدالة هذا الدين القويم الذي يُعلي الحق، ويحافي الظلم الذي يهواه الظلمة البغاة.. فعلى مشهد نأسه بين منتظر ومتروك صدر الحكم العادل، مخالفاً لأعراف الجاهلية، والتي تنصّ على تسيد الحر بالمطلق على غيره من الناس، ففي الحكم جبر لخطر سيدنا بلال ؓ وأمثاله من البسطاء الذين ربما تساءلوا عندما سمعوا تعيير أبي ذر

للصحابي بلون أمه، أما زلنا بلا كرامة أمام السادة؟ لكنهم بمجرد سماع الحكم المنصف تنفسوا الصعداء، وتلاشت كل الظنون بأن السابقين الأولين ممن دخلوا الإسلام لهم بعض التمييز من غيرهم فحاشا لله أن يفكر سيد الخلق بهذا. ألا يكفيننا هذا الموقف الجابر لخواطر شريجة من المجتمع لكي نحب رسول الله، حيث بجبره خاطر الصحابي بلال رضي الله عنه جبر خاطر كل ضعيف على وجه الأرض، وأعاد له اعتباره المعنوي، ولو كان لهذا الصحابي حق مادي لأعاده له.. فذاك نفسي يا رسول الله، ففي معالجتك للحدث علمتنا أهمية أن نتجنب المجاملات في الحقوق والواجبات حتى يرتقي المجتمع، وتنتشر الفضائل والمحبة والألفة بما يقربه من المجتمع الفاضل الذي ينشده كل إنسان سوي. كما أظهر لنا الحدث مدى تمسك الرسول الكريم بإقامة الحدود كما شرعها رب العزة. ما جعلني أجزم أن من يفكر بالاعتداء على حقوق الآخرين سيفكر ألف مرة قبل الإقدام على فعلته خوفاً من العقوبة الحتمية التي سيطبقها عليه القائمون على تنفيذ القوانين..

تصوّر - يا من رعاك الله - كم شخص سيفكر مرات ومرات بالعقوبة التي ستلحقه إن تجرأ، واعتدى على حد من حدود الله. إن مجرد التفكير بالعقوبة سيسهم بالطلق في تخفيف عدد متهمي الحدود، والذي بدوره سيبعث الأمن والطمأنينة والسلام في المجتمع. إن تطبيق الرسول الكريم لحدود الله من دون تمييز بين أبناء

المجتمع الناشئ انطلاقاً من منظور المساواة في الحقوق والواجبات مكّنه خلال فترة وجيزة من تهذيب نفوس كثيرة تعودت على المجاملة، منطلقة من منظور الشرف والنسب. والاكتفاء بتقبيل الرؤوس، والأنوف لحل الإشكالات التي تبقى نارها مستعرة تحت الرماد.. إن المجاملات في الحقوق والواجبات لا تبني مجتمعاً سليماً معافى بل تهدم المجتمع، وتجعله سقيماً، فيه الضعيف مهدور الحق والكرامة، والغني والشريف والقوي حقوقهم مصادرة. هذا النهج من رسول الله ﷺ ارتقى بأمة العرب وهيئاً لقيام بيئة مجتمعية فاضلة انعدمت فيها الجريمة والتعدي على الحقوق، ووصل الأمان والاستقرار إلى درجة انتفت الحاجة للقضاة. فذات يوم جاء أحد القضاة إلى الخليفة، يطلب إعفائه من القضاء. ولما سأله عن السبب قال: منذ فترة لم يتقدم إليّ أحد بدعوى لأنظر فيها.. أي مجتمع هذا؟! إنه مجتمع النقاء والطهارة وحفظ الحقوق وثقافة العفة والقناعة..

كل ما سبق تمّ بفضل الله ومُنّته، حيث طبقت تعاليم الدين الحنيف. فالبيئة الحاضنة للمسلمين غدت لا مثيل لها فيما حولها من بيئات على مختلف الأصعدة.. كم زعيم غربي وقتذاك أرسل أحد أبنائه ليتعلم في بلاد المسلمين! أليس هذا الإنجاز وحده كافياً حتى تتعلق القلوب برجل تمكّن من تحويل بيئة قبلية قائمة على التعصب للقبيلة إلى بيئة فاضلة نابذة لكثير من العادات والتقاليد الجاهلية، وساعية إلى حفظ حقوق مواطنيها وكراماتهم سواء أكانوا فقراء أم

أغنياء، ضعفاء أم أقوياء. عربًا أم غير عرب. هذا الالتزام بإقامة الحدود يحتم عليّ أن أشير إلى موقف الرسول ﷺ في إنفاذ الحد بحق المرأة المخزومية التي علا كعبها اجتماعيًا في بيئتها:

إِنَّ الَّتِي سَرَقَتْ بِعَهْدِكَ سَيِّدِي وَإِلَى كِرَامٍ فِي الْقَبِيلَةِ تُنْسَبُ
فَقَدْتُ فِيهَا حُكْمَ شَرْعٍ بَيْنٍ وَغَضِبْتَ مِمَّنْ جَاءَ عَفْوَكَ يَطْلُبُ

فقد ورد: (أن المرأة المخزومية كان تجحد العارية، وبنو مخزوم أسرة فارهة ضخمة من أسر قريش المشهورة، فلما جحدت مرة حليًا، رُفع أمرها إلى الرسول الهادي ﷺ فقال: حكم الله عز وجل؛ قطع يدها، فقامت قيامة بني مخزوم، وقالوا: تؤسمننا العرب بأن امرأة منا سرقت، لا والله لا يكون هذا واجتمعوا، وسهروا الليالي، وأداروا الرأي، وتساءلوا: من الذي يشفع لهم عند الرسول ﷺ؟ من الذي ينشر القضية؟ ارتبكوا كثيرًا ثم أتوا إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فغضب ورفض واحمر وجهه، وقال: «ويلكم أتشفعون في حد من حدود الله؟ فذهبوا إلى فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﷺ فأخبروها الخبر. فقالت: «ويلكم وغضبت، وتحرك إيمانها في قلبها، وقالت من يشفع في حدود الله؟! وأخيرًا ذهبوا إلى أسامة بن زيد حب الرسول ﷺ وابن حبه يعرضون عليه القضية فهو شاب في الثالثة عشرة من عمره فعرضوا عليه الرأي، فاستحسن الفكرة، وذهب إلى الرسول ﷺ جلس أمامه خجلًا لا يستطيع أن يتكلم بما في صدره، فقال الرسول الكريم: «ماذا في صدرك؟ قال: يا رسول الله، المرأة المخزومية التي

حكمت عليها بقطع يدها نريد أن تغفو عنها، فغضب ﷺ وقام على ركبتيه ورفع صوته على أسامة وقال: «ويحك! جئت تشفع في حد من حدود الله». وقال في إثر هذا الرسول الكريم: «إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع» موطأ الإمام مالك.

هذا يعني أنه إذا بلغت السلطان الحدود كحد الزنا، أو شرب الخمر، أو السرقة ثم جاءه أناس يشفعون لمتتهك الحد، فالله سبحانه وتعالى لعن هذا الشافع الذي يشفع، ولعن من قبل الشفاعة، ثم قام الرسول ﷺ فجمع الناس، وأتى الصوت يدوي في المدينة «الصلاة جامعة، الصلاة جامعة». ولا يجتمع الناس إلا لأمر عظيم خطير في الإسلام. فلما اجتمع الناس قام ﷺ على المنبر ليبين حكم الله، وأن هذه فريضة الله، وأن هذه شريعة الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «إنما أهلك الذين كانوا من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» أخرجه البخاري ومسلم (٣٤٧٥) باب حديث الغار.. حاشا لله أن تسرق البتول فاطمة ابنة الرسول الكريم ﷺ ثم أمر بتلك المرأة، فقطعت يدها، فحسنت توبتها.

قالت عائشة - رضي الله عنها وعن أبيها: «فكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ!!

مصادر الأحداث في (ما رأيت) موزعة بين عدة مصادر وفيها بعض التصرف مني: المكتبة الشاملة الحديثة - دروس الشيخ عائض القرني في ج ٢٥، ص ٧، ج ٦٨ ص ٨. - كتاب ومضات في الإسلام - الباب الرابع - الفقرة - ٣ - قصة جبلة بن الأيهم.

(ب)

حرص الرسول الكريم ﷺ على جبر خواطر أصحابه ﷺ، ولا سيما الفقراء والضعفاء، فجبره لخاطر الصحابي الجليل جلييب ﷺ فاق التصور.. فنفس جلييب صوّرت له ضعة مكانته بالمجتمع. فلا أحد يكثرث به، أو يسأل عنه حتى اكتشف فجأة أن خير البشرية ﷺ يقف إلى جانبه، مهتمًا بشؤونه يحادثه، يلاطفه، لا، بل يعرض عليه الزواج مع معرفته التامة بظروفه المالية والاجتماعية. فجلييب نفسه لم يفكر لحظة في الزواج من قبل؛ فكل تفكيره مُنصبٌّ على كسب قوته الوقتي. لكنه يُفاجأ أن سيد البشر رغم مشاغله الكثيرة يقول: «يا جلييب ألا تتزوج؟». هذا العرض أذهل جلييبًا فوقف دهشًا مذهولًا. لا يكاد يصدق ما تسمع أذناه. رسول الله ﷺ يسأله هذا السؤال الغريب. لو جاء العرض من رجل آخر لتبادر إلى ذهنه مباشرة أن الرجل يهزأ به، ويسخر منه ليزيد آلام معاناته. فيتشجع، ويرد على الساخر منه قائلاً: أوصل بك الحد أن تحتقني بهذه الطريقة المهينة؟ وربما يتشاجران، لكن مَنْ يعرض عليه هو رسول الله ﷺ ما

زاد دهشته، وذهوله فعجز عن الرد. ولما تمالك نفسه، فكَرِبَ يرد على عرض يأتيه من شخص عظيم، هو خير من سار على الثرى، ولا ينطق إلا بالحق؟ فأيقن أن العرض حقيقة ليس حلماً. وفيه الكثير، الكثير من رد الاعتبار له، وجبر لخطره فيمجرد أن يسمع الناس هذا العرض ستتغير نظرتهم إليه، فترفع أسهمه في مجتمعه، ويغدو نجماً، وربما دار حديثه على كل لسان ليل نهار في المدينة. وقد يأتيه من يعرض عليه ابنته ليكسب رضا الله ورسوله. هذا العرض الكريم لن يبقى أثره موقوفاً عند جليبيب بل امتد أثره المعنوي لكل مستضعف في المدينة، مُدخلاً على قلبه السرور والطمأنينة؛ أن خير البشرية مهتم به وبغيره من الفقراء. أليس هذا قمة جبر خواطرهم بعدما عاشوا ردحاً من الزمن مغمورين مهمشين، لا شأن لهم؟ فمن يملكهم من السادة ينظر إليهم أرخص من فرط المتاع.. لم يكن سؤال الرسول الكريم لجليبيب مجرد سؤال عابر وبإجابته عنه انتهى كل شيء، بل توبع ليصبح فيما بعد زواج جليبيب حقيقة. فقد قيل إن بعض أهل المدينة إذا أرادوا تزويج بناتهم سألوا سيد المرسلين تزويجهم لهم.. فجاء رجل من أهل المدينة يعرض ابنته عليه بعد انتهاء عدتها. فخطبها الرسول لجليبيب.. وحصل الزواج..

* المكتبة الشاملة الحديثة، ج ٩٩، ص ٤، كتاب دروس الشيخ عائض القرني.

ما رأييت!!

لو أن رئيس دولة أو مسؤولاً كبيراً في الدولة قَرَّب شخصاً منه بزماننا. ووصل خبره إلى معارفه. ماذا سيحصل؟ أول شيء خطر في بالي كم الفرح الذي سيتملك الشخص فربما أفقده وعيه، وربما ساقه غروره ليتخيّل أنه فوق الجميع.. فإذا سار في الشارع سار بخيلاء، وإذا تكلم تكلم بزهو ومن علٍ. وقد يقصده الكثيرون ممن عرفوه طالبين منه أن يتوسط لدى المسؤول ليساعدهم في تيسير قضاياهم العالقة.. وقد يتمنى بعضهم أن يصاهره ليكون إليه أقرب. وقس على ذلك.. فاهتمام الجميع في مثل هذه المواقف ينصبّ على المظهر أكثر من الجوهر إلا من رحم ربي، بعد هذا السرحان!! رجعت لنفسي فاستغفرت الله مرات، ومرات وقلت: أين الثرى من الثريا؟ وبررت لها فعلي بعدما أثبتني بأنني ضربت المثال لأبين البون الشاسع بين الرسول الكريم الذي شدني فعله وتقريبه جلييباً، وبين المسؤول الكبير والذي قربه منه، حيث قلب الدنيا من حوله فرحاً؛ لأوضح الفرق بين زمن نقي طاهر وبين زمن ضاع في تخمة الماديات. واستذكرت موقف الفتاة - زوجة جلييب - الطاهرة المؤمنة التي عمّر الإيمان قلبها فلم تتغنج، وتتطلب، وتملي شروطها حتى ترضى بالخطيب، بل مجرد سماعها أن الرسول الكريم اختاره لها قبلت

وبإصرار شديد لا لبس فيه ما دفع والديها إلى الإقرار بصواب رأيها وسداده. فكانت مكافأتها من رب العزة في الدنيا بعد أن استشهد زوجها أن ساق كبار الصحابة إلى أبيها طالبين الزواج بها. أما جزاء الآخرة فعلمه عند الله الذي لا تنفذ خزائنه. فشطح فكري جائلاً مع فتيات اليوم، مستذكراً كمَّ المطالب التي تملئها الفتاة على خطيبتها غير مهتمة بالتكاليف والتبعات التي تجعل المسكين منكوباً لسنوات. فكل همها المظاهر والتحدث أمام صويحباتها عن هداياه.. كما تذكرت موقف والدي الفتاة، وهما يشكرانها أن ذكرتهما بأمر الله فهما لم يكابرا ويحاولا إيجاد المبررات للفتاة من باب القول: جلييب يا ابنتي ليس كفؤاً لك، فمن شروط الزواج الكفاءة بين الزوجين. فالرجل لا يملك بيتاً ولا أرضاً ولا عملاً وقس على ذلك من مبررات تساق في أيامنا لتعطيل الزواج إن لم نكن مقتنعين بالخاطب.. فالأبوان وافقا مباشرة مجرد أن ذكرتهما البنت بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [٣٦]. أليس قبول الأبوين مباشرة قرارها وبلا نقاش جبراً لخاطرها؟ لأنهما لم يتعمدا من بعد تعطيله رغم رفضهما له من قبل، فبسماعهما القرآن تغيراً وأسرعاً موافقين على طلب الرسول الكريم بل باركاه. كما دعا لهما رسول الله بالتوفيق.. إن جبر الرسول الكريم ﷺ لخاطر جلييب غير نفسيته، فزاد حبه لله ولرسوله، وللدين الحنيف.. فترجم ذلك عملياً

عندما لبي نداء الجهاد فلم يفكر بأنه رب أسرة ولو لثانية واحدة، ولم يتأخر لحظة، بل كان في صف المجاهدين الأول ليحصد ما عاهد الله عليه، وليقول عنه المصطفى: «جليب منا ونحن منه..» هنيئاً لك يا سيدي جلييب، هذا العز الذي نلته في الدنيا، وتلك المنزلة في الآخرة بإذن الله. فسيد البشرية ﷺ راضٍ عنك؛ لأنك من أولياء الله بشهادته. فأنت ممن بشره بالمنزل العالي في الجنان. لا حرمنّا الله منه..

(ج)

أما الموقف الأخير في هذا المقام فهو موقف فريد من نوعه؛ لأنه يتعلق بجبر خواطر الضعفاء من مثل الأطفال، حيث امتد جبره ﷺ إليهم. فيها هو يداوي جراحات الطفل «أبي عمير» الذي فقد طائرته الصغير عندما زار رسول الله ﷺ صاحبيه أبي طلحة الأنصاري وأنس ابن مالك في بيت أم سليم رأى رسول الله ﷺ طفلاً صغيراً جالساً على الأرض، وكان عمره وقتها ثلاث سنوات في حضنه عصفور صغير مريض، وتنهمر دموعه حزناً على عصفوره فجاء إليه ﷺ وحضنه وقال له: «يا أبا عمير ماذا فعل النُّعير؟» والنُّعير هو العصفور الصغير، فتبسم الطفل الصغير؛ لأن رسول الله ﷺ لقّبه كما يلقب الكبار، وسأله عن عصفوره الذي لم يسأله أحد قبله، وبعد أيام جاء رسول الله ﷺ إلى بيت أم سليم مرة أخرى وطرق الباب، ففتح أنس بن مالك الباب، فدخل رسول الله ﷺ، وتوجه إلى أبي عمير، وسأله بحنان «يا أبا عمير ما فعل النُّعير؟ فرمى أبو عمير بنفسه في حضن رسول الله ﷺ وهو

يبكي ويقول : لقد مات النُّعير، لقد مات النُّعير. وظل الرسول الكريم
يلطفه بالعبارات الرقيقة ويكنيه يا أبا عمير حتى يزيل عنه حزن فراق
عصفوره.

* مركز الاتحاد للأخبار.. بتصرف



ما رأييت!!

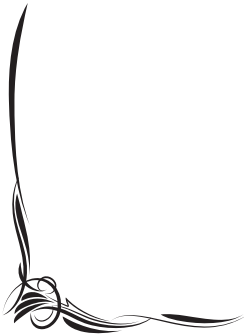
إن السلوك العملي للنبي ﷺ يبيّن كمّ التواضع الذي تخلّق به فجعلني أتساءل عن كمّ الرحمة التي عمرت قلبه، والتي فاقت رحمات كل الآباء الذين يضرب بهم المثل في حنانهم وعطفهم وحبهم لأبنائهم، والتضحية ليل نهار في سبيلهم، بل بذل الغالي والنفيس في سبيل إسعادهم بمئات المرات. فتخيلت لو أن أحدهم حصل لابنه ما حصل لأبي عمير لكان اكتفى بمواساة ابنه بالقول: لا تبك يا ولدي، طير صغير نفق لا يقدم ولا يؤخر، فلا ترعج نفسك. تكرم عينيك غدا سأشتري لك أحسن منه.. خلاص فك العقدة، واضحك، وحاول أن تنساه فإذا استمر الطفل حزيناً تركه وحزنه قائلاً في نفسه: مهما حزنت يا ولدي فسترضى بعد قليل. هذا تصرف الأب الحنون الملازم لابنه صباح مساء، فكيف بمن انصرف عنه لمتاع نفسه، ونسي أن ابنه جزء منه؟؟! إن الأبوة التي حملها الرسول الكريم بين جنبيه لم تكتف بأبنائه الأصليين بل امتدت إلى غيرهم كأبي عمير مع أن لقاءاته به محدودة للغاية، فقد حصلت عَرَضاً في بيت أخيه أنس. ولما شاهد الرسول الكريم فرحة الطفل بالطائر داعبه لحظات، وأدخل على قلبه السعادة. وبمجرد أن مر بالبيت ثانية سأل عن الطفل فلم ينسه. أليس هذا مستغرباً من رجل يمثل

أعلى سلطة بدولة مازالت تبحث عن الاستقرار؟ فكّم المتربصين بها داخليًا وخارجيًا لا عدّ لهم. إذا همومه ومشاغله كثيرة لا حدود لها، ومع ذلك سأل عن الطفل أبي عمير. ولما عرف ما آل إليه، حيث فقد طائره الذي تعلّق به دخل إليه مباشرة غير متابع طريقه لحاجته، وبقي يواسيه، ويداعبه حتى أدخل السرور على قلبه.

بالله عليك يا من تقرأ كلماتي في الوجود رجل بمستوى رسول الله يفعل هذا؟! إن جبر الرسول الكريم لخطر أبي عمير مشهد يحتاج إلى أن يقف أمامه علماء التربية كثيرًا حتى يتدارسوه ويصلوا إلى مردوده النفسي، وتأثيره في بناء الشخصية السوية التي ينشدها كل مجتمع فاضل، كما يرشدنا إلى كيفية التصرف في مثل هذه المواقف إذا حصلت لأحد أبنائنا أو ممن يهمنّا أمرهم لنعمل بهديه ﷺ.. ولا أنسى أن أبا عمير أخ غير شقيق لأنس الذي يبدو من الحدث أن موقفه كان طبيعيًا كغيره من الناس بمثل هذه الأحداث، لكن موقف الرسول الكريم من الحدث فقد كان مختلفًا، حيث هزه، فحاول التخفيف عن الطفل. فلا مجال ألبته للمقارنة، فأنس شكّا من شدة حزن أبي عمير بينما الرسول الكريم أزال حزنه بالتقرب إليه ومشاركته الوجدانية فمصّاب الطفل مصابه، بل خفف عنه إلى درجة أن الطفل شعر براحة لم يألفها من قبل وبحنان فائق..

استعرضت هذه المواقف، مستذكرًا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] فوجدت أثر ثناء الله على خلق الرسول

الكريم، وسلوكه القويم واقعاً بكل ما أتاه من قول أو فعل. فأيقنت أن المشاعر لدينا نحن - البشر - شاملة لا تتجزأ مطلقاً تجاه صغير وكبير، أو غني وفقير، أو حر وعبد. فمن تتبَّعي لجبر الرسول الكريم خواطر شخصيات مثلت شرائح المجتمع بشكل عام لم ألاحظ أيّاً منها كان الأقرب إليه بل تعامل معها بمساواة لا نظير لها.. فتذكرت أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها، وعن أبيها - عندما سئلت عن خلق الرسول ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»؛ لذلك نال الأطفال مكانة في قلبه لم تقل عن مكانة كبار الصحابة.. إن موقف الرسول الكريم إلى جانب الطفل أبي عمير، وهو يجبر خاطره جسّد تعاليم الإسلام عملياً، ورسم لي الطريق الأمثل الذي تساس به الدول بتطبيق العدل، وصيانة الكرامات وأموال الناس. إن جبر خاطر أمثال هؤلاء سواء أكان مادياً أم معنوياً ينزع النار من تحت الرماد، ويُبقي المجتمع نقيّاً خالياً من الغل والحقد، فيجعل أهله ينعمون بالاستقرار..



(٧)

موقف الرسول الكريم من أهل مكة عند فتحها

قال ابن إسحاق: (ثم أقام رسول الله ﷺ بعد بعثته إلى مؤتة شهري جمادى الآخرة ورجب، ثم إن بني بكر بن عبد مناة عدت على خزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له: الوتير، وكان الذي هاج بين بني بكر وخزاعة أن رجلاً من بني الحضرمي واسمه مالك بن عبّاد - وحلف الحضرمي يومئذ إلى الأسود بن رزن - خرج تاجرًا، فلما توسط أرض خزاعة، عدّوا عليه فقتلوه، وأخذوا ماله، فعَدّت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فعَدّت خزاعة قبيل الإسلام على بني الأسود بن رزن الدّيلي، وهم من خير بني كنانة وأشرفهم: سَلَمَى وكُلثوم وذُؤيب فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم. ويتابع ابن إسحاق، فيما بنو بكر وخزاعة على ذلك حجز بينهم الإسلام، وتشاغل الناس به، فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش كان فيما شرطوا لرسول الله ﷺ وشرط لهم: أنه من أحب أن يدخل في عقد الرسول الكريم وعهده فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده. ويتابع ابن إسحاق: فلما كانت الهدنة اغتتمها بنو الدّيل من بني بكر من خزاعة، وأرادوا أن يصيبوا منهم ثأراً بأولئك نفر

الذين أصابوا منهم بني الأسود بن رزن، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في بني الديل، وهو يومئذ قائدهم، وليس كل بني بكر تابعه حتى بيّت خزاعة وهم على الوتير - ماء لهم - فأصابوا منهم رجلاً، وتحاوزوا واقتتلوا، ورفدت بني بكر قريش بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً حتى حازوا خزاعة إلى الحرم. فلما انتهوا إليه، قالت بنو بكر: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك، إلهك. فقال كلمة عظيمة: لا إله له اليوم، يا بني بكر أصيبوا تأركم، فلمعري إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تصيبون تأركم فيه، وقد أصابوا منهم ليلة بيتوهم بالوتير رجلاً يقال له: منبه. فلما دخلت خزاعة مكة، لجؤوا إلى دار بُدَيْل بن وَرْقَاء، ودار مولى لهم يقال له رافع. فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة، وكان في عقده وعهده، خرج عمرو بن سالم الخزاعي، ثم أحد بني كعب، حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف عليه، وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

يا ربِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا	حَلَفَ أَيْنَا وَأَيْبِهِ الْأَثَلَدَا
قَدْ كُتِمُ وُلْدًا وَكُنَّا وَالِدَا	ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانْصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا	وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا

فقال الرسول الكريم: «نُصرت يا عمرو بن سالم» ثم خرج
بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على الرسول الكريم
المدينة، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم،
ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وقد قال الرسول الكريم للناس:
«كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد في المدة» ثم خرج
أبو سفيان حتى قدم على الرسول الكريم المدينة، فكلمه، فلم يرد
عليه شيئاً. ثم ذهب إلى أبي بكر، فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ
فقال: ما أنا بفاعل ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أنا أشفع
لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم
خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعنده فاطمة بنت رسول الله
ﷺ ورضي الله عنها، وعندها حسن بن علي - غلام يدب بين يديها -
فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة فلا
أرجعنَّ كما جئتُ خائباً فاشفع لي إلى رسول الله فقال: ويحك يا أبا
سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه
فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بئيك
هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت:
والله ما بلغ بُني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله
ﷺ قال: يا أبا الحسن: إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ؛ فانصحني.
قال: والله ما أعلم لك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين
الناس، ثم الحق بأرضك قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال:

لا والله، ما أظنه، ولكنني لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، فانطلق. وأمر رسول الله ﷺ بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه، ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها» فتجهّز الناس.

وعن عبد الله بن عباس قال: ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري، وخرج لعشر مضين من رمضان. ومضى حتى نزل مرّ الظهران في عشرة آلاف من المسلمين، فلما نزل رسول الله ﷺ مرّ الظهران، وقد عميت الأخبار عن قريش. فلم يأتهم خبر عن رسول الله ﷺ، ولا يدرون ما هو فاعل، وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به، وقد كان العباس بن عبد المطلب لقي رسول الله ﷺ ببعض الطريق فلما نزل رسول الله ﷺ مرّ الظهران، قال العباس بن عبد المطلب: فقلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. قال: فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها. قال: حتى جئت الأراك، فقلت: لعلي أجد بعض الخطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة، فيخبرهم بمكان

رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. فوالله إني لأسير عليها، وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرًا. قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة حمستها الحرب. قال: يقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. قال: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل! قال: قلت: نعم، قال: مالك؟ فذاك أبي وأمي. قال: قلت: ويحك أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله. قال: وما الحيلة؟ فذاك أبي وأمي. قال: قلت والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك. قال: فركب خلفي ورجع أصحابه. قال: فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها، قالوا: عم رسول الله على بغلته. حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من هذا؟ وقام إليّ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة، قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشدد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء. قال: فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني أضربن

عنه. قال: قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا ينجيه الليلة دوني رجل، فلما أكثر عمر في شأنه، قال: قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال عمر: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم. فقال رسول الله ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به» فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله» قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد. قال رسول الله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله»، قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. فقال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. قال: «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن غلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس، احبس به بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها» قال:

فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي، حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه. قال: ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة. قال: يا عباس، من هذه؟ فأقول: سُليم، فيقول: مالي ولسليم؟! ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فأقول مُرينه، فيقول مالي ولمرينه؟! حتى نفدت القبائل، ما تمر قبيلة إلا يسألني عنها، فإذا أخبرته بهم، قال: مالي ولبني فلان؟! حتى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبه الخضراء فيها المهاجرون والأنصار - رضي الله عنهم أجمعين - لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيمًا. قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة. قال: فنعم إذن. قال: قلت: النجاء إلى قومك، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك. قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته مُعْتَجِرًا بِشُقَّة بُرْد حَبَرَةٍ حُمْرَاء، يضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عُثُونَهُ ليكاد يمس واسطة الرّحل. ويتابع ابن إسحاق،

وحدثني عبد الله بن أبي نجيح أن رسول الله ﷺ حين فرّق جيشه من ذي طوى أمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كُدى، وكان الزبير على المجنبه اليسرى، وأمر سعد بن عبادَةَ أن يدخل في بعض الناس من كداء. وزعم بعض أهل العلم أن سعداً حين وُجّه داخلاً قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحُرمة. فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله، اسمع ما قال سعد بن عبادَةَ، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة. فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «أدركه، فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها».

ويتابع ابن إسحاق: وقد حدثني عبد الله بن أبي نجيح في حديثه أن رسول الله ﷺ أمر خالد بن الوليد، فدخل من اللَّيْط أسفل مكة، في بعض الناس، وكان خالد على المجنبه اليمنى، وفيها أسلم وسليم وغفّار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب. وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ ودخل رسول الله ﷺ من أذخر حتى نزل بأعلى مكة، وضربت له هنالك قُبْته. كما حدّث عبد الله بن أبي نجيح، وعبد الله بن أبي بكر أن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناساً بالخدمة ليقاتلوا، وقد كان حماس بن قيس يعد سلاحاً قبل دخول رسول الله ﷺ (ويصلح منه)، ثم شهد الخدمة مع صفوان وسهيل وعكرمة، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد ابن الوليد، ناوشوهم شيئاً من قتال. وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى

أمرائه من المسلمين - حين أمرهم أن يدخلوا مكة - أن لا يُقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه قد عهد في نفر سباهم أمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة.

كما أضاف ابن إسحاق عن صفية بنت شيبة أن رسول الله ﷺ لما نزل مكة واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت، فطاف به سبعا على راحلته، يستلم الركن بمحجن (العصا المعوجة) في يده، فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكف له الناس في المسجد. قال ابن إسحاق: (فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو دم يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مئة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب» ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] ثم قال: «يا معشر قريش، ما ترون أي فاعل فيكم؟» [حديث مرسل] قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدُعي له، فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برٍّ ووفاء»، يتابع ابن هشام قائلًا: وبلغني عن يحيى بن سعيد أن النبي ﷺ حين افتتح مكة دخلها، قام على الصفا يدعو الله، وقد أحدثت به الأنصار، فقالوا فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ، إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟ فلما فرغ من دعائه قال: «ماذا قلتم؟» قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل حتى أخبروه، فقال النبي ﷺ: «معاذ الله! المحيا محياكم، والممات ممانكم» قال ابن هشام: عن ابن عباس قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته، فطاف عليها، وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا» فما أشار إلى صنم في وجهه إلا وقع لقفاه، وما أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع. وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف، وكان فتحها لعشر ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان للهجرة.

* مختصر السيرة النبوية لابن هشام ٢٠٦ - ٢١٥

ما رأييت!!

إن أذى المشركين في مكة للرسول الكريم، وأتباعه لم يقتصر على فترة ما قبل الهجرة، بل امتد إلى قبيل فتح المسلمين لمكة، فإرهاصات الفتح كانت عسيرة عصيبة على أهل مكة عندما علموا بفشل مساعي أبي سفيان في المدينة بتمديد الهدنة لمدة عام آخر بينهم وبين المسلمين. فبدأت فرائصهم ترتعد خوفاً ورعباً من سوء أفعالهم التي ارتكبوها بحق المسلمين من قبل إلى حدّ يندى لها الجبين؛ لذلك توقعوا أن يبطش المسلمون الفاتحون بهم انتقاماً للفظائع التي ارتكبوها بحقهم.. فحسب المجرم الأثم من مشركي مكة ألف حساب للحظة التي ستقع فيها عيناه على عيني مَنْ عذبه أو سلبه أو نهره. فعذاباته الوحشية القميئة لم تغادر مخيلته ليل نهار وبخاصة عندما تأكد أن يوم حسابه على ما اقترفت يده اقترَب، وسينقلب عليه ويلاً وثبوراً، مستذكراً الآهات التي تعالت من أفواه المعذبين في بطحاء مكة وقت الظهيرة عندما تكون الشمس بذروة حرارتها. فالمجرم من هؤلاء يجر المسلم على الرمال، ثم يوسده ليضع الحجارة الحارة على صدره لتكون ناراً على نار غير مكترث بأناته التي تكاد تحتق هي الأخرى من شدة الألم. كم من مستضعف عذَّب، وضرب

وقُهر حتى أُغمي عليه! ومنهم من مات تحت التعذيب كآل ياسر. هذا البطش اللعين، والعذاب الشديد، والأذى المؤلم لم يسلم منه حتى المسلمون السادة أفرادًا وجماعات. فبنو هاشم حوصروا في شعب أبي طالب ثلاث سنوات عانوا فيها عذابات لا يتحملها بشر، فأكلوا في الشَّعب الحشائش وأوراق الشجر خشية الموت جوعًا.

ولما فشل مخطط المشركين في جعل بني هاشم يتخلون عن رسول الله ﷺ ويسلمونه لهم ليقتلوه انتقلوا إلى عمل أقطع وأبشع وأخس وهو التآمر على قتل الرسول الكريم، فدبروا، ومكروا مكرًا تزول به الجبال. لكن الله أشد مكرًا منهم وأكبر، وأقدر، فأوحى إلى رسوله الكريم ما دبره الحاقدون الماكرون، فسمح له بالهجرة هو والصديق الصدوق أبو بكر ﷺ إلى المدينة ففقد المشركون بهجرته فرصة العمر كما يقال. فكان رد فعلهم بطشًا قاسيًا، حيث فرغوا حرة قلوبهم المملوءة حقدًا على من تبقى من المسلمين في مكة؛ وبخاصة من أراد أن يلحق برسول الله ﷺ إلى المدينة. ولكي يتفادى المسلمون أذى المشركين ومنعهم الهجرة إلى المدينة كانوا يهاجرون خلصة حتى لا تكتشفهم العيون، تاركين خلفهم أهلهم وأموالهم. فإن فكر أحدهم باصطحاب زوجته، ونُمي بالخبر إلى أهلها المشركين منعوها أن تصحبه وحالوا بينها وبينه. ومنهم من لم يُسمح بهجرته إلا بمقابل مادي، كما حصل للصحابي صهيب الرومي. فبمجرد أن عرف نفر من أهل مكة بهجرته منعه، وحالوا بينه وبينها، بل عيروه

بفقره الشديد وقتما جاءهم؛ فقالوا: يا صهيب، ما ثراؤك الحالي إلا من أموالنا؛ فساوموه على ماله، قائلين إن دلتنا على مكان مالك خلينا سبيلك كي تتابع هجرتك..

أثر الصحابي صهيب رضي الله عنه أن يبتاع نفسه بثروته، فدلهم على مكان دفنها. ولما وصل المدينة كان خبره قد وصل قبله إلى رسول الله ﷺ فبارك الرسول الكريم له ببيعه. فقد قال سعيد بن المسيب: «أقبل صهيب مهاجرًا نحو رسول الله ﷺ فاتبعه نفر من مشركي قريش. نزل عن راحلته، ونثر ما في كنانته، وأخذ قوسه ثم قال: يا معشر قريش، لقد علمتم أني من أركم رجلاً، وأيم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم، فقالوا: دلنا على بيتك ومالك بمكة ونخلي عنك، وعاهدوه إن دلهم أن يدعوه ففعل. فلما قدم على رسول الله ﷺ قال الرسول الكريم: «أبا يحيى، ربح البيع، ربح البيع»، وأنزل الله القرآن مخلصاً ببيعه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، ففي هجرة صهيب روايات، لكنها تُجمع على أنه ابتاع نفسه بهاله ليهاجر بدينه. ومن بشاعة جرائمهم التي تُدمي القلب ما تقصه السيرة عن هجرة أبي سلمة رضي الله عنه فكانت هجرته مأساوية إلى أبعد حد! حيث تعرضت أسرته بالكامل في هجرته للأذى الشديد، وتروي أم سلمة رضي الله عنها قصتهم فتقول: «لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي

بعيره، وحملني عليه وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رآته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرايت صاحبتك هذه، علام نتركك تسير بها إلى البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه. قالت: وغضبت عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت فتجاذبوا بني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: ففُرق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكي، حتى أمسى سنة أو قريباً منها. فمرَّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحماني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟! قالت: فقالوا لي: الحق بزوجك إن شئت. قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعتَه في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله. قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله إلا الله وبني هذا. قال: والله

ما لك من مترك. فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه قيده في الشجرة، ثم تنحى وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة. فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخلها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة. قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة»...

أرأيت - يا من رعاك الله - كم القسوة التي تمكنت من قلوب هؤلاء، وتلك الوحشية التي تعاملوا بها مع آل أبي سلمة، وغيرهم من المسلمين الأوائل سواء أكانوا صغاراً أم كباراً؟ لقد عمّر الحقد أفئدتهم حتى تمكّن منها، والكره المقيت تجذّر في نفوسهم حتى غدا مجرد ذكر الإسلام أمامهم يستفزهم؛ لأنه يدعو إلى ترك عبادة آلهة صنعت بأيديهم من الحجارة أو غيرها لا تضر ولا تنفع، بل تخط من قيمة الإنسان وتسفه عقله، لم تكن لحظة واحدة - كما يزعمون - تقربهم من الله زلفى. في المقابل كان رسول الله ﷺ يدعوهم لعزهم، ولم يسبب لهم أي ضرر. فدعواهم كانت لهم بالحسنى، لكنهم قابلوه بالأذى والتعنت والتفنن في صنوف الأذية سواء له أو لأتباعه وجاء الأذى من أقرب الناس منه. فعمه أبو لهب لم يقتصر أذاه على القول

بل وصل إلى الفعل، حيث طلب من ولديه أن يطلقا ابنتي رسول الله ﷺ لتعودا إليه. فضلاً عن تآزر كل القبائل ضده وضد أتباعه وبكل ما أوتوا من قوة، حتى وصل أذاهم إلى حد إزهاق الأرواح كما حصل لآل ياسر. في المقابل كان الرسول الكريم يصبر أتباعه وبخاصة العبيد المملوكين من قبل مشركي مكة، فلم يؤلب أحداً من أتباعه قط على سيده الذي يعرضه لأشد العذاب، حتى هو نفسه لم يسلم من أذيتهم فمنذ أن جهر بالدعوة قابله هؤلاء بالرفض والعداء والحق، بل نعتوه بأسوأ الصفات المكروهة والمنبوذة في مجتمعهم مع علمهم اليقين أنه منها بريء لأنهم لم يعطوا أنفسهم فرصة مجرد التفكير بالدعوة بل أخذتهم العزة بالإثم، فشرعوا يخططون لإبعاده عن دعوته بالمغريات تارة وبالترهيب أخرى، لكنه ﷺ صبر وتحمل كل إجرامهم..

ولكي أدلل على كلامي أستعرض بعضاً من مواقف الأذية التي أنتهجها المشركون في مكة ضد الرسول الكريم وأتباعه. فمنذ دعاهم إلى الإسلام تسارع وتتابع أذاهم عليه من كل حذب وصبوب.. فقد أورد ابن إسحاق في السيرة النبوية أن الله منع ﷺ بطش أهل قريش، حيث قام عمه وقومه من بني هاشم وبني المطلب دونه، وحالوا بينه وبين أعدائه، فأخذ أهل الشرك في مكة يهزونه ويستهزئون به ويخاصمونهم. فنزلت آيات القرآن الكريم تتحدث عن أفعالهم، ولا سيما فيمن نصّب نفسه عدواً للرسول الكريم جهاراً نهاراً

ولدعوته فسمى القرآن من سمي منهم، وترك الآخر بلا تسمية
 فوردت الآيات بشأن الكفار على العموم. فكان ممن سمي من
 قريش، ونزلت فيه الآيات عمه أبو لهب بن عبد المطلب، وامراته أم
 جميل بنت حرب؛ لأنها كانت - فيما بلغني - تحمل الشوك فتطرحه
 على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر. فأنزل الله تعالى فيها: ﴿تَبَّتْ
 يُدَّأبِي لَهُبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ
 نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ ۝٢ وَأَمْرَأَتُهُ ۚ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ
 مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد].. ومن عناهم القرآن الكريم أمية بن خلف
 الذي إن رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه، فقال الله تعالى فيه: ﴿وَبَلَّ
 لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۚ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۚ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ
 أَخْلَدَهُ ۚ ۝٣ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۚ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۚ ۝٥ نَارُ
 اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ۚ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْفَاعِدَةِ ۚ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ۚ ۝٨ فِي عَمَدٍ
 مُّمَدَّدَةٍ ۚ ۝٩﴾ [الهمزة].

كما ذكر ابن إسحاق أن أبا جهل بن هشام لقي رسول الله ﷺ
 فقال له: والله يا محمد لتتركن سب أهتنا، أو لنسبن إهلك الذي تعبد.
 فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ
 عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فذكر أن رسول الله ﷺ كف عن
 سب أهتهم، وجعل يدعوهم إلى الله. ومن هؤلاء أيضًا النضر بن
 الحارث فقد كان يتبع رسول الله. فإذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا،
 يدعو فيه إلى الله تعالى، ويتلو القرآن، ويحذر فيه قريشًا مما أصاب

الأمم الخالية؛ خلفه في مجلسه إذا قام، فحدثهم عن رستم الصنديد وعن أسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها. فأنزل الله فيه: ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ [الفرقان: ٥ - ٦].

ومن الذين عناهم القرآن الكريم الأخنس بن شريق حليف بني زهرة، وكان من أشرف القوم ومن يستمع منه، فكان يصيب من رسول الله ﷺ ويرد عليه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلَاَفٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿١٠﴾ هَمَزَ مَشَاءَ بَنِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَشْمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ [القلم: ٨ - ١٣]، وكذلك الوليد بن المغيرة الذي قال: أينزل على محمد، وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؟ ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيمي القريتين. فأنزل الله تعالى فيه - فيما بلغني - يعني ابن إسحاق -: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿٣١﴾ [الزخرف: ٣١] وأبي ابن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وكانا متصافيين، حسناً ما بينهما، فكان عقبة قد جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، فبلغ ذلك أبا، فأتى عقبة فقال له: ألم يبلغني أنك جالست محمداً وسمعت منه؟ وجهي من وجهك حرام أن أكلمك - واستغلظ من اليمين - إن أنت جلست إليه أو سمعت منه، ألم تأته فتتفل في وجهه. ففعل

الشقي عدو الله ذلك لعنه الله، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَيَوْمَ بَعْضُ الظَّالِمِ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) **يَوْمَئِذٍ لَيَتَنَّى لَمْ** أَخَذْ فَلَانَّا خَلِيلًا (٢٨) **لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا** (٢٩) ﴿[الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، ومشى أبو بن خلف إلى رسول الله ﷺ بعظمٍ بالٍ قد أرفت - صارت رفاتا - فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم ثم فته في يده ثم نفخه في الريح نحو الرسول الكريم. فقال رسول الله ﷺ: «نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَى خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** (٧٩) **الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ** (٨٠)﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠]، فلما تتابع أذى قريش للمسلمين طلب منهم الرسول ﷺ الهجرة إلى الحبشة فففيها ملك عادل لا يُظلم لديه أحد، وبقي هو في مكة يدعو إلى ربه ويلاقي صد وإيذاء قريش، كما تعرض مع بقية المسلمين إلى حصار دام ثلاث سنوات اضطر فيه المسلمون إلى أكل ورق الشجر، وحل عام الحزن حيث فقد رسول الله ﷺ عمه أبا طالب وسنده ومستشارته الأولى زوجته السيدة خديجة ﷺ فصبر، واحتسب فشاء الله أن يأخذه في رحلة الإسراء والمعراج، ولما حدثت قومه عنها، سخرها منه مع أنه جاءهم بحقائق تدعم صدقه، وأجاب عن أسئلتهم، لكن العزة بالإثم تمكنت من

قلوبهم فتتابع أذاهم له، ونعتوه تارة بالشاعر وتارة بالكاهن، بل وصله أمرهم أن يتهموه بالجنون، وبأن الجن تُملي عليه، وغير ذلك من افتراءات كاذبة هم أنفسهم لا يصدقونها؛ لأنهم يعرفون نشأته وأخلاقه وصدقه وأمانته. فلما وصلوا إلى طريق مسدود، وفشلت محاولاتهم سواء أكانت في الترغيب أم في التهيب لإبعاده عن دينه فكفروا بالخلاص منه بأي طريقة ممكنة حتى يئدوا دينه.

ويتابع ابن إسحاق: «لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا، وأصابوا منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا في دار الندوة - وهي دار قصي بن كلاب فقريش لا تقضي أمرًا إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه. وينقل ابن إسحاق عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لما أجمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل عليه بَتّ - وهو الكساء الغليظ - فوقف على باب الندوة، فلما رآوه واقفا على بابها، قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأيًا ونصحًا. قالوا: أجل، فادخل فدخل معهم، وقد اجتمع فيها

أشرف قريش ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش. فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا؛ فأجمعوا فيه رأياً. قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله كزهير، والنابعة ومن مضى منهم حتى يصيبه الموت كما أصابهم.

فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه - كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتهم دونه إلى أصحابه فلا وشكوا أن يثبوا عليكم فينزعه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره، فتشاوروا. ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا ننفيه من بلادنا فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع إذا غاب عنا، وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقته، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمتتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، دبّروا فيه رأياً غير هذا قال: أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ

من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه؛ فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم. قال: فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا أرى غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبريل ﷺ رسول الله ﷺ فقال: لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرددونه متى ينام، فيثبون عليه.

فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلي بن أبي طالب: «نَمْ على فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فَنَمْ فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم» وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام. قال ابن إسحاق: عن محمد بن كعب القرظي قال: لما اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل ابن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها. قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: «أنا أقول ذلك أنت أحدهم» وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم، ويتلو:

﴿يَس ١﴾ وَأَلْقُرْآنَ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس: ١ - ٩] حتى فرغ من تلاوة الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب. فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدًا. قال: خيكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلًا إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليًا على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي ﷺ عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا. قال ابن إسحاق: وأذن الله تعالى لنبيه ﷺ عند ذلك بالهجرة؟ وكان أبو بكر ﷺ ذا مال، فكان حين استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فقال له رسول الله: «لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبًا» قد طمع بأن يكون رسول الله ﷺ إنما يعني نفسه حين قال له ذلك، فابتاع راحلتين فاحتبسهما في داره يعلمهما إعدادًا لذلك.

هاجر الرسول الكريم بصحبة أبي بكر نَعَمَ الصحبة. فلما علمت قريش بهجرته جن جنونها وهاجت، وماجت وبحثت عنه في كل الأماكن التي تتوقع أن يكون فيها فلم تجد له أثرًا فرصدت جائزة كبيرة، وهي مئة ناقة لمن يرده عليها. وكان السبَّاق إلى ذلك سراقه بن مالك إلى ركب الرسول الكريم، فحصل له ما حصل من أمارات النبوة التي حالت من دون أن يحظى بالجائزة، لكن سيد البشرية المطارد، والمطلوب إلى قريش حيًّا أو ميتًا، يمر في وقت عصيب ضمن صحراء قاحلة من ينجو من مخاطرها فائز، يَعِدُّ سراقه وَعَدًّا مازال يدهش المراقبين، بل يظنه الكثيرون ضربًا من المستحيل في استقرار اللحظة التي أُطلق فيها، حيث يطلب من سراقه العودة إلى مكة، ويتركه مهاجرًا مع صاحبه مقابل تاج كسرى وسواريه. هيهات، هيهات أن يصدّق سراقه وعدًّا يأتيه من شخص ملاحق لا يأمن على نفسه، ويترك ثمرة كادت تصل إلى يده فتغيّر حياته إلى الأبد؟ أفديك بنفسك يا رسول الله، كم كانت ثقتك يقينية بنصر الله! فهي أنت تتنبأ بسقوط المدائن وغيرها حتى زوال الإمبراطورية الفارسية الراسخة، والضاربة جذورها في التاريخ من الوجود.

عندما أستاذك هذا الموقف العجيب يبادرني سؤال: يا ترى عندما يسمع ملحد غير مؤمن وعد الرسول الكريم لسراقه ماذا يقول؟ بتقديرى أولاً شيشك بسمعه. فيقول: أهذا الذي سمعته

كلام أم اختلط عليّ؟ فإن تأكد أنه كلام حقيقي يعقب قائلاً: أيمن لعقل بشري أن يصدق كلام رجل هارب ملاحق، مرصود لجلبه ميتاً أوحياً عشرات الإبل التي يسيل لها لعاب معظم الناس سواء أكانوا أغنياء أم فقراء؟ لا، وألف لا. يصعب استيعاب هذا الكلام.

ويضيف: العجيب في الحدث - ولا يعقل - أن رجلاً غامر في الصحراء بحياته ومستقبله ليقبض الجائزة أن يتركها بعدما توصل إلى المرصودة بشأنه، معرضاً نفسه للمخاطر في البحث عنه فلما وجدته يتركه وسيله فيخسر مئة ناقة؟... برأيي هذا سؤال منطقي في هذا المقام من غير المؤمنين بدعوة رسول الله ﷺ أما نحن - المسلمين - فلا نجادل حول صحته أبداً، بل نؤمن به ونصدقه؛ لأن قائله جاءنا بأكبر منه فصدقناه وآمنّا به بأنه مرسل من إله يعلم السر وأخفى من السر، وإذا قال للشيء كن فيكون، وأنزل عليه كتاباً مباركاً ورد فيه قوله تعالى عن رسوله الكريم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم ٣ - ٤].

إذاً كلام الرسول الكريم ووعدده لسراقة بالنسبة لنا - المسلمين - صادق وحاصل لا محالة. فلا رادّ لأمر الله. فما كُتب على المرء سيصيبه، وما منع عنه لن يأتيه وإن تضافر عليه الناس كافة. فالله قادر على أن يخرج الميت من الحي، والحي من الميت، ويرزق الدودة العمياء في قلب الصخرة الصماء. ليس بعزيز عليه أن يحقق وعد محمد ﷺ الملاحق الهارب لسراقة بن مالك. فهو من أوحى له ليغدو وعده

معجزة ودليلاً على صدق دعوته. فسبحان مكن الأكوان صاحب القوة المكين الذي مكن المسلمين من أرض كسرى ليتحقق وعد نبيه محمد ﷺ لسراقة فذات يوم ينادي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه سراقة بن مالك ليلبسه سوارى كسرى وتاجه..

وصل الرسول الكريم ﷺ أخيراً بعد رحلة شاقة محفوفة بالمخاطر في صحراء مقفرة إلى المدينة، فنزل مكرماً عند خير أهلهم الأنصار، ثم شرع يُرسي قواعد الدولة الناشئة، فأخى بين الأنصار والمهاجرين ليشكل كتلة متألّفة متعاضدة تقوى على الصمود أمام الصعاب التي ستواجه الدولة الوليدة في الأيام القادمة. كما عاهد سكان المدينة من اليهود، فأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم. لكن اليهود عُرفوا بنقضهم العهود، فمن طبيعتهم الخبيثة، فكادوا للرسول ﷺ كثيراً، وأظهروا غير ما أخفوه في نفوسهم من كره له ولأتباعه سواء أكانوا من جيرانهم من الأوس والخزرج الذين دخلوا الإسلام، أم من المهاجرين للمدينة من قريش؛ لأن مبعث الرسول من العرب ألمهم، ونزع منهم التفاخر والتعالي على أهل المدينة، وسلب تغنيهم بأنه مجرد أن يبعث نبيهم في آخر الزمان ستتغير أحوالهم، ولن يستطيع الأوس والخزرج إن اجتمعوا الوقوف في وجههم، وسيغلبون عليهم إن لم يؤمنوا برسولهم وربما يخرجونهم من المدينة لتبقى خالصة لهم من دون الناس.

فلما بُعث النبي ﷺ من أمة العرب أُسقط في أيديهم. فاضطروا إلى التعايش مع الواقع، وأبرموا عهداً ورسول الله ﷺ ولم يكونوا في لحظة واحدة صادقي العهد بل كانوا ينتظرون الفرصة السانحة لنقضه. فلما اكتشفوا حجم الخلاف بين المسلمين وأهل مكة تقاطعت مصلحتهم مع أعداء المسلمين، فشرعوا يحرضون قريشاً وغيرها من العرب على حرب محمد ﷺ لاستئصال دعوته من جذورها حتى يخلو لهم الجو. ويعودوا إلى سابق عهدهم من تأليب الأوس والخزرج ضد بعضهم بعضاً ليسودوا من جديد في المدينة.

إن هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة أبعدته عن أهل قريش جسداً، لكنه حاضر بمجالسهم ولن تهدأ نفوسهم إلا بزوال دعوته. فبمقدار ما غاظتهم نجاته، جمعتهم، فشرعوا يعدون العدة لحربه قبل أن تقوى شوكته فيعود إليهم فاتحاً ويستأصل شأفة أصنامهم التي يزعمون بأنها تقرهم من الله زلفى. فكلما سنحت لهم الفرصة أشعلوا معركة ضده، وألبّوا عليه قبائل العرب إلى أن جاء أمر الله بأن يسير المسلمون إلى مكة فاتحين فكان ذلك في العام العاشر للهجرة.. لقد آذت قريش الرسول ﷺ كثيراً، بل وصل أذاها إلى المسلمين الأوائل فمنذ أن جهر المصطفى ﷺ بالدعوة وحتى عودته إلى مكة فاتحاً كانت تتفنن في فنون التعذيب الجسدي والنفسي ما يجعل أساطين القادة عاجزين عن مواجهته، وربما تنهار جيوش مشهود لها في ساحات الوغى في ذاك الزمن أمامه؛ فقريش لم تُعط فرصة للمسلمين لالتقاط أنفاسهم

أبدًا، وتثبيت أركان دولتهم بشكل يمكنهم من الانطلاق على مختلف الصُّعد؛ لذلك يصعب عليّ تقريب المشهد للقارئ، فكَمّ المكر والتآمر يجعلان الجبال الراسيات الشاخات تنوء بهما، لكن بفضل الله العزيز وتأييده نبيه الكريم بدد كل صعب. فاستطاع الرسول الكريم ﷺ مع بضع مئات من الصابرين المحتسبين تحمله والصبر عليه، بل نجحوا في إفشاله، وتمكنوا من إنشاء دولتهم في بحر خضم من الأعداء يعملون ضدهم سواء أكانوا داخل المدينة أم خارجها، إضافة إلى قريش وأشياعها من الأعراب. فإيمان المصطفى الراسخ ﷺ بصدق دعوته أعطاه قوة خارقة أهلته أن يتحمل كل ذلك، ومثله تحمل المسلمون الكثير من ويلات الغربة، وترك المال والولد وغيرهما في سبيل دينهم، ونصرة نبيهم الذي كان همُّهُ هو إخراج التائهين من غياهب الجهل والظلمات إلى النور والعلم حتى يرتقوا، ويكونوا أفضل الأمم على وجه الأرض. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فقد فسرت كلمة كنتم «صرتم» لكن بموجب شروط تضمنتها الآية الكريمة.

إذاً الرسول ﷺ كان يدعوهم لهذا المجد والعز، عبادًا للرحمن حتى لا يبقوا مطايا للشيطان والكهان، وليكونوا أعزة على أعدائهم لا أذلة يتحكم برقابهم غيرهم من الدول كالفرس والروم، ولما حان وعد الله لرسوله بالنصر دخل المسلمون مكة فاتحين شاكرين

الله مترفعين عن أذى من آذاهم فلم يشهد تاريخ البشرية قديماً ولا حديثاً في أي فتح أن تعامل الفاتحون كما تعامل المسلمون مع أهل مكة الذين أوغلوا من قبل بالمسلمين تعذيباً وقهراً بغية القضاء المبرم عليهم..

إن أي منصف من كتّاب التاريخ؛ عليه أن يفكر مئات المرات قبل أن يُجري مقارنة بين موقف الرسول الكريم الإنسانى الفريد من نوعه لدى دخوله مكة فاتحاً منتصراً وبين دخول الفاتحين الآخرين لعواصم أعدائهم. فالرسول الكريم مثل قمة التواضع، والرقى، والتسامح، والشعور بالمسؤولية، وحب الحياة وإعلاء شأن الإنسان بصفحه عن المسيئين بعد أن تمكّن من رقابهم. فالقصاص منهم هو قمة العدالة والإنصاف، لكنه تعالى على جراحه، وتابع مهمته السامية بإخراج هؤلاء من أتون عبادة الأصنام إلى عبادة الرحمن. فالدنيا بالنسبة له دار عمل وابتلاء، وطريق إلى الآخرة التي تمثل دار المآب والجزاء.

فقد سبقت الإشارة إلى تعامل المشركين مع رسول الله ﷺ وأتباعه بوحشية لا نظير لها، وما ذلك إلا غيظ من فيض فمند أن جهر الرسول الكريم بالدعوة لم يتوقف أذى المشركين للمسلمين، بل استمر حتى فتحت مكة؛ لذلك هاب المشركون المسلمين الفاتحين، وتوقعوا أن يكثروا فيهم القتل انتقاماً لما فعلوه بحقهم. فكانت

المفاجأة أن الفاتحين أظهروا سموًا وترفعًا وطيبة لا نظير لها، عملاً بتعاليم دينهم الحنيف التي جسدها المسلمون الفاتحون سلوكًا عمليًا صفحًا، وتسامحًا، وعفواً عمن أساءوا إليهم، وربما كانوا قد دبروا لقتلهم.. دخل الفاتحون مكة من غير مكان. فظن أهل مكة أن الفاتحين بعملهم هذا يفوتون الفرصة على من سيهرب منها خشية الانتقام فزاد خوفهم، وهلعهم، لكن المفاجأة أذهلتهم فلم تكذب أعينهم تصدق ما تراه من تصرفات الجيش الفاتح، ولا أذانهم ما تسمعه عن هذا التعامل الراقي تجاه الذين ارتكبوا بحقهم من قبل أبشع الجرائم. فتعامل الفاتحين الإنساني لأهل مكة خلّد هذا الفتح، وجعله فتحًا مغايرًا متميزًا من كل الفتوحات على مدار التاريخ لعدة أسباب:

١- قائد جيش فتح مكة معروف لأهلها؛ فهو ينتمي لأسرة تمثل سنام وجهاء مكة، تهتم بالشأن العام، فجده واجه جيش أبرهة الأشرم الذي جاء مكة ليهدم الكعبة قبل عدة عقود؛ فأسرة القائد الفاتح تحظى بمكانة اجتماعية مرموقة ليس على مستوى مكة فقط وإنما على مستوى المنطقة. كما أنه ولد في مكة، وترعرع بها صبيًا وشابًا وكهلاً حتى عرفه أهلها بصدق الحديث، واستقامة السلوك، وأمانة اليد، ووفاء العهد، وإخلاص العمل. فلم يرتكب قط أي فعل مشين طيلة حياته بينهم. فعلى الرغم من معارضة دعوته، لكنهم يشنون على دماثة خلقه، وطيب منبته؛ بل كانوا يضعون أماناتهم عنده

لحفظها بعد جهره بدعوته. فلما أمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة أوكل إلى ابن عمه علي عليه السلام أن يعيد لهم أماناتهم رغم تأمرهم عليه. ألا يعدُّ هذا دليلاً على نبلة، وحسن سيرته، وخلقه القويم؟ فقد قيل:

وَسَمَائِلُ شَهِدِ الْعَدُوَّ بِفَضْلِهَا وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ

فالرسول ﷺ تحلَّى بسيرة حميدة، وخلق قويم، ومروءة ناجزة قبل أن يبعث بدعوته. فلن يُظن لحظة أن شخصية تتمتع بهذه المآثر تفكر بالإيذاء، وإن أُسيء إليها. فضلاً على أنه مبعوث لتمام مكارم الأخلاق من لدن رب رحيم. من هنا وجدناه يحثُّ أتباعه على التسامح، والبر بالآخرين. فلو استرجعنا سير الفاتحين كلهم على مدار التاريخ فلن نجد أحداً يتحلَّى ولو بجزء يسير من مثل خلقه النبيل الذي شهد له به أعداؤه قبل أتباعه. فربُّ العزة جمَّله بها، إضافة إلى كثير من الصفات الأخرى المحببة للنفوس البشرية.

٢- هذا النوع من الفاتحين لا يضع - ولو للحظة واحدة - نصب عينه التشفي من الأعداء ولا الشماتة بهم، أو إهانتهم بالقول أو العمل؛ لأنه صاحب هدف سام نبيل، هو انتشالهم من جحيم كفر يورثهم خلوداً في نيران جهنم؛ لذلك كان أرحم بأنفسهم من أنفسهم رغم إصرارهم على قتله وبذل كل غال ونفيس في سبيل إنجاز غايتهم فكانوا يتربصون به ليل نهار، كما عملوا جادين على تشويه سيرته، ونعته بصفات بعيدة عن خلقه بُعد المشرق عن

المغرب، بل تسفيه دعوته، وتسليط أراذلهم لإيذائه في مواقف كثيرة سواء في مكة أو الطائف. كان يسعى إلى ما لا تدركه عقولهم التي ران عليها الشرك، لينقلهم من الظلمات إلى النور، وليعيد إليهم عزتهم وكرامتهم التي أهدروها بالوقوف أمام حجر يتلمسونه، بل يعبدونه ويتضرعون إليه ليبعد عنهم الضرر على الرغم من معرفتهم أنه صنم مصنوع لا يسمع ولا يرى، ولا يقدم ولا يؤخر. بل وصل بهم السفه أن أحدهم يصنع هذا الصنم بيديه ثم يعبده. فإن كان مصنوعاً من تمر وجاع العابد الصانع للصنم يوماً ولم يجد طعاماً سوى صنمه أكله.. هؤلاء الذين وقفوا بحزم ضد الرسول الكريم، وحاربوه، بل حرصوا أشد الحرص على قتله، إلا أنه يوم الفتح العظيم صفح عنهم، وأكرم نزلهم، وعلى رأسهم أبو سفيان الذي قاد المعارك ضده. فبمجرد أن جاءه مسلماً عفا عنه، وأكرمه، ورفع من مكانته بجعل من يدخل بيت أبي سفيان يوم الفتح آمناً. أي شرف عظيم ناله هذا الرجل على الرغم من عداوته السابقة لسيد البشر؟

٣- الفاتح العظيم محمد ﷺ لن يفكر مطلقاً بغير إرضاء ربه، وإنفاذ أمره، ومن ثم رفع مكانة قومه إلى المعالي ليكونوا سادة الدنيا، لكنهم عارضوه كرهاً وحقداً وضيعته لا تكذيباً وطعنًا بدينه بدليل أنهم تمنوا لنزل القرآن على رجل من القريتين عظيم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].. فالمشركون لم يشككوا بالقرآن؛ لذلك قالوا: هلاً

نزل هذا الكتاب على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين مكة أو الطائف. هلاً نزل على الوليد بن المغيرة المخزومي من أهل مكة، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي من أهل الطائف.. سبحانه الله العظيم على تلك العقول التي تود تقسيم عطاء الله على هواها!

٤ - فرحة النصر لا تضاهيها فرحة أخرى. فكيف إذا جاءت بعد معاناة وصبر وعذابات استمرت سنوات؛ فمن يتتصر في معركة مهما صغرت، لا تكاد الأرض تحمله من شدة فرحه. فتراه يتيه زهوًا وفخرًا وتعالياً، وربما يصدر أحكامًا على أعدائه جائزة تودي بحياة الكثيرين غير مكترث بعهد أو ذمة. وقد يعيث أتباعه في المدن المفتوحة فسادًا وتخريبًا. يستولون على ممتلكات أعدائهم وأموالهم، ويذيقونهم أشد العذابات بعجرفتهم وغلوهم وصلفهم. ينكّلون بالصغير قبل الكبير، وبالمرأة قبل الرجل لكن المصطفى ﷺ عندما دخل مكة فاتحًا دخلها متواضعًا لله، شاكرًا له نعماءه، يوصي أتباعه بآلا يتعرضوا لأحد من أهلها، ولا لأموالهم أو حرمتهم، ولا يربعون صغيرًا ولا كبيرًا رغم أفعالهم المشينة من قبل.

٥ - المؤلف بالانتصارات صغيرها، وكبيرها مجرد أن تضع الحرب أوزارها، وتتوقف المعارك الطاحنة تبدأ الدولة المنتصرة بإقامة الاحتفالات، مستعرضة ما غنمته على الملاء، لترسل من خلال احتفالاتها رسائل إلى الآخرين بأنها قوية مهابة، وذات شوكة، تجعلهم

يفكرون ويحسبون ألف حساب قبل التجرؤ عليها من جهة، ومن جهة أخرى كأنها تدعوهم إلى أن يطلبوا مهادنتها؛ لذلك قد تتقاطر الوفود عليها من كل حذب وصوب تهتتها بالنصر، وتُبدي رغبتها في التعاون معها، لكن فتح مكة خلا من البهرجة والاستعراض. فلم يذكر أن فاتحيها أقاموا شيئاً من هذا القبيل، بل توجهوا مباشرة إلى ربهم شاكرين معظمين معاهدين على الله أن يستمروا في نشر دينه بين الناس حتى تتحقق العدالة، فيسود الأمن والاستقرار لربوع العرب..

سَتَعُودُ يَوْمًا لِلَّتِي أَحْبَبْتَهَا وَخَرَجْتَ مِنْهَا وَالْدُّمُوعُ تُكَفِّفُ
وَتَعِيشُ فِيهَا سَيِّدًا وَمُهَيِّمًا وَتُذِلُّ قَوْمًا بِالْمَكَائِدِ أَسْرَفُوا
بَعْضُ الَّذِي سَطَّرَتْهُ فِي سُورَةِ (قَصَصُ) تُسَمَّى لِلَّذِي لَا يَعْرِفُ

٦ - فاتح مكة الرسول ﷺ متميز من كل الفاتحين؛ لأنه تقدم إلى فتح مكة، وهو واثق مئة بالمئة بالانتصار، فربه وعده بالنصر منذ غادرها مهاجرًا رغبًا عنه. فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلِّ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٨٥: القصص]، فقد ورد في تفسير القرطبي: أن الآية وردت في نهاية سورة القصص، وفيها بشارة لسيدنا محمد ﷺ برده إلى مكة قاهرًا لأعدائه، وفي قول آخر: بأنها بشارة للرسول ﷺ بالجنة، لكن الأول أكثر ترجيحًا من الثاني، وهو قول جابر بن عبد الله،

وابن عباس، ومجاهد وغيرهم. قال القتيبي: معاد الرجل: بلده؛ لأنه ينصرف ثم يعود. وقال مقاتل: خرج النبي ﷺ من الغار ليلاً مهاجراً إلى المدينة في غير الطريق مخافة الطلب، فلما رجع إلى الطريق، ونزل الجحفة عرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها فقال له جبريل إن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.. «أي إلى مكة ظاهراً عليها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية بالجحفة فهي ليست مكية ولا مدنية..

٧- يا من رعاك الله، دلني على سيرة أي فاتح على مدار التاريخ خُصَّ بضمان الانتصار على أعدائه من الله الجليل باستثناء رسول الله ﷺ فإن حصل في التاريخ أن قائداً دخل مدينة، وهو واثق من النصر مئة بالمئة، فقد يرجع ذلك إلى أن المدينة خالية من البشر، حيث جلا عنها أكثر أهلها ومن تبقى لا قدرة لهم على المواجهة أو أنها أرسلت إليه مستسلمة من قبل أن يدخلها جيشه ورغم ذلك الاستسلام يسير جيشه مزوداً بالخطط ما يعني أن ثقته بالنصر فيها شك. أما فاتح مكة رسول الله ﷺ فقد وُعد بالنصر من رب العزة خالق السماوات والأرضين وما فيهن. مع كل ما سبق فقد علمنا الرسول الكريم ضرورة الأخذ بالأسباب؛ لذلك تراه كتم خبر توجهه إلى مكة لفتحها، بل سار في طريق مخالف لطريقها معمياً. ولما دخلها لم يُبد بهرجة أو زهواً بل تواضعاً لربه، وشكراً له على نعمة الفتح الموعد. أليس هذا كافياً لجعله ﷺ مميزاً من الفاتحين الآخرين..

٨ - الرسول ﷺ منذ بدئه الدعوة لم يفكر لحظة بمغرم من مغام الدنيا، بلى سعى بكل ما أوتي من قوة مقدماً تنفيذ أمر الله بدعوة أهل مكة وغيرهم لما فيه نفعهم بإخراجهم من الظلمات إلى النور على ما سواها من منافع شخصية تخصه أو تخص أهله أو أتباعه، ولا يطمح بزعامة أو ثراء، وإنما كان هدفه الأول أن يأخذ بأيديهم ليتروا عبادة آلهة لا تمتلك نفعاً أو ضرراً لنفسها فكيف لها أن تدفعه عن غيرها، بل رغب في عبادة إله واحد بيده كل شيء؟.

٩ - أخبرني - بالله عليك - كم قائداً عبر التاريخ ممن قرأت عنهم أو سمعت سيرهم قدّم مصلحة أتباعه على منفعة الشخصية! أليس من الإنصاف أن أهيم بهذا النموذج القيادي جاً؟

١٠ - محمد ﷺ مختلف عن القادة الآخرين كلياً. فمقارنته بهم إجحاف في حقه، لكن الضرورة أحياناً تحتّم هذا حتى يبرز تميّزه من غيره. فكل قائد من هؤلاء بمجرد أن ينجز النصر يكون خطه البياني قد وصل إلى ذروة ارتفاعه، فيصبح همه الأوحّد أن يحافظ على مستواه حتى لا يبدأ بالانحدار، لكن رسول الله ﷺ بفتح مكة بدأ مؤشّر خطه البياني يرتقي، واستمر ارتقاؤه حتى التحق بالرفيق الأعلى. فهل سطرّ التاريخ قائداً مثله؟ إنه سيد البشرية وهاديها -عليه أفضل الصلوات - .

١١ - عُرف على مدار التاريخ أن القادة الفاتحين بعد معاركهم الفاصلة يأخذون فترة من الزمن للاستراحة تسمى بالعرف

العسكري - استراحة محارب - لالتقاط أنفاسهم وإعطاء جنودهم فرصة للذهاب إلى أسرهم للاطمئنان، ولاستعادة نشاطهم؛ وليعطوا لأنفسهم فرصة إعادة النظر بخططهم الموضوعة في ضوء ما أفرزته المعارك السابقة، لكن رسول الله ﷺ بعد فتحه مكة مباشرة وجّه سفراءه ومبعوثيه إلى شيوخ القبائل العربية في الجزيرة العربية، وإلى قادة الإمبراطوريات الأخرى كقيصر وكسرى.. وغيرهما يدعوهم للدين الحنيف على الرغم من قلة إمكانات دولته الوليدة قياساً بإمكانات الدول المستقرة والراسخة في القدم. أرسل وفوده وأحياناً سراياه، وجراحات جنوده لم تلتئم بعد. فمعظم القبائل حول المدينة، ومكة كانت تضمر له العداوة حتى إن بعضهم أزر قريشاً في حربها ضده لوقف المد الإسلامي إليها، ورغبة باستئصال الدعوة حتى لا تطيح بزعامه شيوخ تلك القبائل.

١٢ - الوفاء النادر الذي أبداه رسول الله ﷺ للمدينة المنورة، وأهلها الكرماء - الأنصار - وإيثاره لها باتخاذها مقاماً له، وعاصمة لدولته الفتية، بل طلب أن يدفن في ثراها. تالله وبالله ليمثل هذا الاختيار قمة الوفاء والإخلاص، والعرفان بالجميل فقد كان بإمكان الرسول ﷺ أن يعيش بقية حياته في المدينة، ثم يخص ثرى مكة ليكون مرقده الأخير. فعلى ثراها ولد، وأمضى جل طفولته، وشبابه، وكهولته، لكنّ وفاءه للمدينة، ولأهلها دفعه إلى إثارة على مهجة قلبه، وموطن ميلاده ونشأته وشبابه مكة. وهو من صرح من

قبل بأن مكة أحب بقاع الأرض إلى قلبه. إلا أن وفاءه حتم عليه العودة إلى المدينة المنورة ليتابع بناء دولته، وليرسل بعوثه وجيوشه إلى الأمصار يدعو أهلها إلى الدين الخفيف. هذا الوفاء الفريد لمكة ميّز فتحها. لكن دفن الرسول ﷺ فيه تخفيف عن أمته من نقل المتوفى إلى مولده فإن دفنه في مكان وفاته عمل بالسنة النبوية المشرفة، فقد روى النسائي عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: مات رجل بالمدينة ممن ولدوا بها، فصلّى عليه رسول الله ﷺ ثم قال: «إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس بين مولده إلى منقطع أثره في الجنة» أي يعطى الرجل المتوفى الذي دفن في غير مولده في الجنة مسافة قدرها ما بين مكان ميلاده إلى المكان الذي انقطع فيه أثره أي انقطع أجله.. والله أعلم.

١٣- من يشكك بما أقول فليأت بقائد من قادة الفتوحات على وجه المعمورة اكتنز مثل هذا الوفاء لمدينة وقفت معه وقت أزمته وضيقة، بل أثرها على مهجة قلبه بلده المحب وبقي مقيماً فيها وقد تجاوز الستين من العمر غير مكترث بمقولة كبار السن: «لم يبق من العمر إلا القليل فلم لا أمضيه في أحضان بلدي التي أحب» وفاءه ﷺ فاق التصور سواء أكان للمدينة المنورة التي احتضنته عندما هجره أهل مكة أم لأهلها الذين عوضوه عن الأهل والأصدقاء. بدليل ما ورد عن ابن عباس قوله: قال رسول الله ﷺ لمكة: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك» رواه الترمذي وصححه الألباني، وفي حديث آخر قال عبدالله

ابن عدي بن الحمراء: رأيت رسول الله ﷺ وهو على ناقته واقف بالحزورة - موضع بمكة - والحزورة تل صغير - يقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليّ، والله لولا أني أخرجت منك ما خرجت» فهذه أم القرى، والبلد الحرام، والبلد الأمين، وبكة، خير أرض الله على الإطلاق، وأحب الأرض إلى النبي ﷺ هذا لا يعني أن حبه للمدينة أقل: فعن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت: «قدمنا المدينة وهي وبيئة - تعني ذات وباء - فاشتكى أبو بكر - تعني مرضاً - واشتكى بلال، وعامر بن فهيرة، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ وَمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

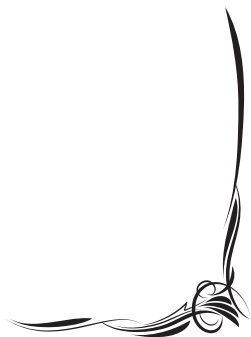
فدعا رسول الله ﷺ ربه للمدينة فقال: «اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كما حبيت مكة أو أشد - يعني أكثر وأعظم». قد يتوارد السؤال التالي إلى أذهاننا في هذا المقام: أيهما الأحب للرسول الكريم؟ جمهور العلماء قالوا: إن مكة أفضل خلافاً للمالك - رحمه الله - فقوله: «لمكة إنك أحب البلاد إليّ، وإنك أحب أرض الله إلى الله» هذا على ظاهره، وقصد في الحديث الآخر زيادة منزلة المدينة، ومحبة المدينة في قلوب أصحابه لثلاث يميلوا كل الميل إلى مكة، وتصبح المدينة لا شيء لها في قلوبهم، وأنها مجرد أرض وباء فأراد أن تزيد قيمة المدينة في قلوبهم، لا أن تنقص قيمة مكة التي فيها الكعبة والحرم ويقصدها المسلمون للحج والعمرة وكلاهما واجب على المسلم إن استطاع إليه سبيلاً.

١٤ - تميّز فتح مكة من غير الفتوحات بأنه توبع باستقرار، فالمدينة لم تشهد أي تشكيل لمقاومة للفاحين، كما يجري مع الفتوحات الأخرى فبعد أن تهدأ العاصفة تستعر النار التي بقيت من قبل تحت الرماد. فتتشكل فرق محدودة العدد لمقاومة الفاتحين أو المحتلين - إن كانوا غرباء - وتتعاظم مع الزمن، وتستمر المقاومة حتى يتحقق النصر بجلاء المحتل عن البلاد مهما طالت فترة احتلاله، لكننا لم نشهد مثل هذا بعد فتح مكة بل تقاطر الناس إلى دخول الإسلام أفواجا ليكون حقاً فتح مكة مختلفاً ومتميّزاً من غيره.

١٥ - عرف على مدار التاريخ أن الفاتحين يجردون زعماء البلاد المفتوحة من الامتيازات، والمكتسبات إن لم يودعوهم السجون، وقد يفتكون بهم باختلاق مسرحية هزلية تنتهي بانتحار الزعيم أو موته حتى لا يبقى الزعيم رمزاً ومبعث مقاومة في نفوس الشباب. وربما امتد التنكيل إلى الوجهاء خوفاً من تأثيرهم في الناس، حيث تنزع منهم المكتسبات، وربما ينفي بعضهم خارج البلاد أو يقتل وبأفعالهم هذه يبشون الخوف في النفوس ليخلو لهم الجو حتى يتمكنوا من سلب خيرات البلاد التي أسالت لعابهم، أما فاتح مكة فهذه الخيرات لا تهمه، ولم يفكر لحظة بأن ينزع ملك أحد من الناس، بل استهدف إيصال رسالته التي كُلف بها، وأعلن بصريح العبارة أن الوجهية في الجاهلية إن دخل دين الإسلام يبقى وجيهاً. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم» فقالوا: ليس

عن هذا نسألك قال: «فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» متفق عليه .

* قسم من الأحداث الواردة بما رأيت مصدره مختصر السيرة النبوية لابن هشام ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .



(٨)

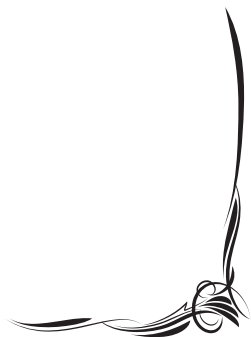
موقف الرسول الكريم من عثمان بن طلحة إثر فتح مكة المكرمة

لما فتح الرسول الكريم مكة المكرمة أزال الأصنام من الكعبة، ثم أقام الصلاة فيها، لكنه تذكّر ماضيًا مؤلمًا حصل بينه وبين عثمان ابن طلحة قبل الهجرة حينما طلب منه أن يفتح له الكعبة ولبعض من المسلمين للصلاة فيها. فأغلظ عثمان له القول. فيروي عثمان ابن طلحة نفسه فيقول: «كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يومي الاثنين والخميس فأقبل رسول الله ﷺ يومًا يريد دخول الكعبة مع الناس فأغلظت له، ونلت منه. فحلّم عني ثم قال: يا عثمان لعلك ستري هذا المفتاح يومًا بيدي أضعه حيث شئت، فقلت له لقد هلك قريش يومئذ وذلت. فقال: «بل عمرت وعزت يومئذ»، ثم دخل الكعبة. فوقع كلمته مني موقعًا ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال».

مرت الأيام والأعوام على الرسول ﷺ خارج مكة ثقيلة؛ لبعده عنها وما فيها من مقدسات، وعلى الرغم من صعوبتها حملت في طياتها الكثير من المفاجآت والأحداث حتى جاء يوم فتح مكة، والذي حصل في العشرين من رمضان العام الثامن للهجرة. أراد

الرسول ﷺ في ذلك اليوم دخول الكعبة فأرسل علي بن أبي طالب
 إلى عثمان بن طلحة ليأخذ منه مفتاح البيت الحرام، فأعطاه له
 كارهاً، فدفعه إلى النبي ﷺ ففتح الكعبة المشرفة، وكسر الأصنام،
 وغسلها بماء زمزم ومن هنا سُئِنَ غسلُها ثم صَلَّى فيها ركعتين.
 فنزل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا
 وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
 بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، هذه الآية الوحيدة التي نزلت في الكعبة،
 فخرج ﷺ من الكعبة، وهو يردد هذه الآية. فقال عمر بن الخطاب
 لم أسمعها من قبل، فنادى الرسول الكريم عثمان بن طلحة، وقال
 له: «هاك مفتاحك يا عثمان اليوم بر ووفاء» وتابع: «خذوها
 خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم.. يا عثمان إن الله استأمنكم على
 بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف» قال عثمان: فلما
 وليت ناداني فرجعت إليه فقال: «ألم يكن الذي قلت لك؟» قال
 فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة: «لعلك ستري هذا المفتاح بيدي
 أضعه حيث شئت» فقلت: «أشهد أنك رسول الله».

* مختصر السيرة النبوية ٢١٦ - ٢١٧



ما رأيتم!!

إن موقف الرسول الكريم كان متميزاً؛ صدر عن نبي متميز ما يؤكد سمو خلق الرسول الكريم، وعلو شأنه، فقد ترفع ﷺ عن جفاء عثمان بن طلحة وغلظته، ورده المبطن بالسخرية الذي حصل منذ سنوات عجاف خلت عاشها الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في مكة قبل الهجرة. فنالوا أقسى أشكال العذابات وأمرها إلا أنه ﷺ يوم فتح مكة سامح عثمان بن طلحة، وصفح عنه، بل أكرمه، وأعاد إليه مفتاح الكعبة، مفتاح أشرف بقعة مبنية على الأرض وربما الأقدم، حيث بناها سيدنا آدم عليه السلام بمعونة الملائكة. فالرسول الكريم تعلق قلبه بها لقدسيته، فرغب في الصلاة فيها؛ لذلك طلب من عثمان ابن طلحة قبل الهجرة أن يفتحها ليصلي بها. فحصل من عثمان رده القاسي المبطن بالسخرية. فلما أخذ الرسول ﷺ المفتاح من عثمان بعد الفتح لم يصدر رغبة شخصية غرضها الانتقام لماضيٍ مريٍر انقضى، بل لتعاليم الدين الحنيف. فعثمان لم يزل على شركه، وبيت الله الحرام محرم على المشركين كما ورد في القرآن الكريم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: ٢٨]. هذه الآية نزلت في العام

التاسع للهجرة، حيث أزال الله سبحانه وتعالى ولايتهم عن المسجد الحرام، وحظر عليهم دخوله. فطلب الرسول ﷺ المفتاح من عثمان، وهو يعلم مكانة المفتاح لدى عثمان الذي توارثه عن أجداده منذ مئات السنوات. فلو كان الفاتح غير محمد ويعلم مكانة المفتاح عند عثمان لوجده فرصة لمساومة عثمان عليه، بأن يتركه بيده مقابل دخوله الإسلام - حاشا لله أن يفعل الرسول الكريم هذا ففيه إكراه لعثمان على دخول الدين، ومخالفة لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. فعثمان بن طلحة أيقن عين اليقين أن محمداً رسول من الله تعالى؛ فجاء رد فعله أن قال: «أشهد أنك رسول الله».

- تصرف الرسول ﷺ تجاه عثمان وغيره من المشركين دليل ساطع على كم الأخلاق الحميدة والفترة السليمة والسلوك القويم الذي يتحلّى به سيد البشرية، والذي عمل بكل ما أوتي من قوة أن ينقله لأصحابه وأتباعه من بعده ليتمسكوا به، ليكون سلوكاً عملياً لهم مع غيرهم سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين؟ فلو نظرنا نظرة موضوعية إلى حصيلة تعاملهم مع غيرهم لتبين لنا كم التغيير الذي حصل على المسلمين العرب، حيث انتفى الظلم والكبرياء والصلف والأنانية من مجتمعهم بشكل عام، وحل مكانه الحب والتعاون والاحترام ما مكنهم من نشر دين الله على بقعة واسعة من الأرض خلال فترة قصيرة..

- هل تجد في الدنيا كلها من أحد يعامل من منعه وأغلظ إليه القول بل سخر منه على رؤوس الأشهاد، ليمنعه من تحقيق مراده بمثل هذه الطيبة والسماحة؟ بل الأهم هو عدم مساومته على المفتاح الذي يتمنى كل مسلم أن ينال شرف الاحتفاظ به؟

- فعمل سيد البشرية ﷺ ليس مستغرباً تجاه عثمان، فقد صفح عمن أساء له، بل دبر لقتله، ثم أجبره على ترك مكة رغم تعلقه بها؛ ليخرج متخفياً ولما فتحها منتصراً قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ما يعني أنه عفا عن أفعالهم المشينة؛ فالرسول الكريم جاء رحمة للناس ولإخراجهم من الظلمات إلى النور.

- إكرام الرسول ﷺ لعثمان بن طلحة إكراماً ممتداً لم يقصره على فترة حياة عثمان بل منحه لذريته من بعده، حيث طمأنهم أن من فكر مستقبلاً بمنازعتهم عليه فهو ظالم باغ. هذا تهديد صريح لكل من يفكر في أخذه عنوة منهم وبأن مصيره النار، وبئس المصير فهي مأوى الظلمة. هات - يا من رعاك الله - أن فاتحاً واحداً من الفاتحين على مدار التاريخ يعامل أعداءه بهذا الفعل.

- إعادة مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة بعد نزول آية الأمانة دليل قاطع لكل ذي لبّ وبصيرة من الخلق قاطبة، وللمشككين بدعوة الرسول ﷺ أن عمل الرسول الكريم لم يصدر عن هوى وإلا لأعطى المفتاح لابن عمه وصهره علي بن أبي طالب ؑ الذي كان يرغب في تسلمه، وفي السقاية أيضاً. فعليّ ؑ ذو مكانة عظيمة عند

الرسول الكريم، حيث عاش، وتربى في بيته فكأنه ابنه، ثم تزوج أصغر بناته، وأكثرهن شبهًا بالرسول الكريم، كما أنه قدم خدمة للرسول ﷺ يوم نام في فراشه، معرضًا نفسه للموت فعلى ما تقدم كله نفذ الرسول ﷺ أمر الله..

- إن ذكري لتلك المواقف الخالدة من سيرة الرسول الكريم غير كافٍ، فكل مواقفه تستوجب التأمل لأخذ العبر منها مع ذلك فهذا النزر اليسير قياسًا بمواقفه الكثيرة المشهودة خلال رحلة حياته زادت من حبي له ﷺ وأكدت لي بأنه خير البشرية، وأنه أرحم مخلوق على وجه الأرض بالخلق قاطبة؛ فهمه الأوحاد أن يعيدهم إلى الفطرة السليمة إلى التوحيد كي يتشلهم من الحمأ المسنون الذي هم فيه: كفر، إلحاد، تصارع، تقاتل، نهب، سفك دماء وغير ذلك كثير.. لينقلهم إلى نور الإيمان وسكينة حتى تطمئن نفوسهم، لكن تغليبهم العزة بالإثم ووسوسة شياطين الإنس والجن دفعهم إلى معاداته حتى ضاعوا وأضاعوا فصاروا تائهين غير مهتدين. ألا يكفي هؤلاء دليلًا على عظمة الرسول ما فعله المشركون به وبأتباعه. ولما دخل جيشه مكة لم يرهب أحدًا منهم عملاً بهدفه وهو انتشالهم مما هم فيه من جاهلية، وعلى الرغم من محاولة بعض رجال من قريش بقيادة عكرمة بن أبي جهل التصدي للجيش الفاتح، لكن خالد بن الوليد قام بما يناسب المقام، وقتل بعضهم، ففرّ الباقيون، وأنجز الفتح المؤزر. فصعد بلال رضي الله عنه سطح الكعبة، وأعلن انتصار

المسلمين، وهزيمة المشركين. فقد عرفنا من حديث عثمان بن طلحة السابق أن الرسول ﷺ أرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه إليه ليأتي بالمفتاح. ولما جاء به عثمان بن طلحة أخذه الرسول ﷺ ثم دفعه إلى عثمان قائلاً: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم برّ ووفاء».

- كما أمر الرسول الكريم بإخراج الصور من الكعبة التي زعموا بأنها لسيدنا إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ خطب يوم الفتح فقال: «ألا إن كل مائرة كانت في الجاهلية من دم أو مال تذكر وتدعى تحت قدمي، إلا ما كان من سقاية الحاج، وسدانة البيت» رواه أبو داود وابن ماجه.

كما ورد لدى ابن حبان قول الرسول الكريم ﷺ يوم الفتح أنه قال: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بائها، فالناس رجلان: بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب» رواه الترمذي وابن حبان.

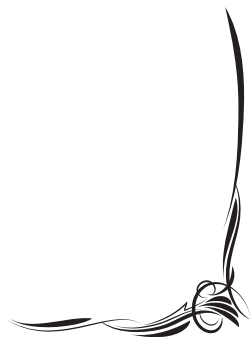
- عبية: تكسر عينها وتضم، أي الكبر.

* موسوعة الأحاديث النبوية

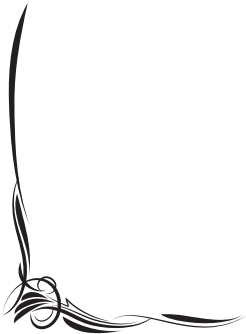
كلام الرسول ﷺ يمثل دعوة لأهل مكة للبدء بحياة اجتماعية جديدة مختلفة بالكلية عن حياتهم الجاهلية التي فرقت بينهم وزادت

معاناتهم، وفرقت كلمتهم؛ فأضاعت هيبتهم بين شعوب الأرض.
 فالله أدعو أن يجعل هذا لوجهه الكريم. إن وُفقت فمن الله، وإن
 جانبني التوفيق فمن نفسي. وأختم بالصلاة والسلام على سيد
 المرسلين محمد بن عبدالله الذي أدى الأمانة على أكمل وجه، وبه
 أشهد..

طُوبَى لِمَنْ شَغَلَ الْيَرَاعَ وَفَكَرَهُ بَكْتَابَةٍ عَنْ خَيْرٍ مَنْ وَطِئَ الشَّرَى
 مَنْ قَدْ حَوَى مِنْ مَكْرُمَاتٍ عَشْرُهَا بِجَوَاهِرٍ وَلَالِيٍّ لَا تُشْتَرَى



بِحَمْدِ اللَّهِ





شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net